القسم الرابع

عصر المُدُن

- ١٠ -

بلاد التكرور (ق١١-ق١٥م)

«فجمعوا الوجه البربري الجميل بالشخصية المرحة واللعوبة للعرق الإفريقي الأكثر سوادًا»
هنري بارت

في الوقت الذي كان فيه شمال الصحراء يخرجُ من تصدُّرِ التاريخ السياسي الإسلامي العالمي الذي دخله بفورة المرابطين ويعود، كما كان، مسرحًا للقبائل والقوافل وصولاتها وجولاتها، بدأ جنوب هذه الصحراء وشمال السودان يدخل في تقابل تاريخي جديد: ولاتة وتمبكتو، الذي بدأ يحلُّ محل تقابل أوداغست وكومبي صالح. تكوّن هذا المجال الجديد في إطارِ ما سيُعرف بـ**بلاد التكرور** وكان أساسه وجود المجتمعات التجارية المهاجرة التي تدين باطِّرادٍ بدين واحد وتتكلّمُ لغات تقارِبُها العلاقات التجارية بين المجتمعات الصنهاجية والسودانية، ويُقارِبُها وجود نظام قانوني إضافة للأعراف والنسخ المتعدِّدة من الشريعة التي دعمها نفوذ العلماء والقضاة واحتكام السكان إليها.

سيُعرف هذا المجال بـ«**بلاد التكرور**»، تسمية أو بالأحرىٰ انطباع قادم من المشرق العربي. كان التكرور شعبًا في مجال حوض نهر السنغال من جهة الغرب، وقد بدأوا في الصعود في الفترة التي شهدت ضعف مملكة غانا. ولكن مجالهم لن يعني سلطة التكرور بقدر ما سيعني العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي نشأت أول مرة في مجالهم والمجالات المحيطة به، والتي جمعتهم بالشعوب المحيطة والبعيدة. وحتىٰ بعد أفول التكرور لصالح المانديّ ثم سيطرة

الصنهاجيين والطوارق، فإن المجال سيبقىٰ معروفًا، وخصوصًا لدىٰ متأخّري الجغرافيين العرب، بـ **بلاد التكرور**. وسيظهر دومًا في تاريخ المنطقة بزوغ نوع من المجالات الثقافية، متعدّدة الهويات، والمنسوبة إلىٰ عرقية واحدة، ولكن المفعمة بالتفاعل الاجتماعي والتعدد والثراء والاختلاف العرقي والثقافي. وهو الحال نفسه في المجال الذي سيظهر لاحقًا، أو بأثرٍ رجعي غالبًا، باسم «**السونغاي**» أو «**بلاد شنقيط**» أو «**تراب البيضان**».

نبع مجال **بلاد التكرور** من علاقات التجارة بين أعراق مختلفة من البربر والسودان ومن سلطة الفقهاء، وقد بدأت هذه السلطة تظهر مبكرًا في القرن الثاني عشر عندما استطاع فقيه مسلم من البربر -كما يبدو- استغلال لحظة أزمة في الاقتصاد الروحي الوثني في بلاد ملل الماندیغية في مالي، التي كانت محاذية لبلاد غانا، لتحويل معتنَقِها إلىٰ الإسلام. فقد بدأت القرابين المقدّمَة للآلهة للاستسقاء بالأمطار تثقل كاهل الأهالي وتنقص المواشي؛ ولذلك عندما هرع الملك الوثني إلىٰ الفقيه المسلم، فإن الأخير اقترح الإسلام حلًا لمشكلة الغيث والقرابين. وحسب الإرث المحكي، فما إن وافق الملك علىٰ العَرض ودخل الإسلام مع رعيته والأكابر من بلده وأخشعوا لله في يوم الجمعة واستَسْقَوْه حتّىٰ تدفّقَتْ الأمطار قبل الفجر، وهكذا تحوّلت ملل الوثنية إلىٰ أولىٰ الممالك المسلمة في السودان وتسمّىٰ ملكها بالمسلماني[(١)].

ربما كان هذا الملك هو بَارمَانْدانَا، الذي كان أوّلَ ملك لمالي أو مَلَلْ وقد حجّ؛ وكان من السونينكي الأقوياء، وليس من التكرور[(٢)]. ولكن الإسلام الإفريقي المبكِّر سيرتبط بتكرور الغرب السوداني. ويعتقد معظم مؤرِّخي المجال الجِديِّين أن تكرور القرن الحادي عشر هم الماندي وليسوا التكرور اللاحقين، أي

---

(١) البكري، ص ١٧٨.

Nehemia Levtzion (2000) "*Islam in the Bilad al-Sudan to 1800*" in The History ofIslam in Africa. (eds) *Nehemia Levtzion* and Randall L. Pouwels. Athens: Ohio University Press, pp, 63-91(64-65).

(٢) من التكرور الماندي بحسب لشاتليير، الذي ربما لم يفهم هذا التبادل في المصادر العربية للهويات السونينكية والتكرورية. ٨٠ El Fasi 363.

الفُلاّن والبولار. ويرىٰ بعض الأكاديميين الغربيين أن هؤلاء التكرور، في شمال السنغال، أصبحوا أوّل مملكة مسلمة في السودان عندما أسلم ملكهم، وَرْجَابِي بن رَابِيسْ (ت ١٠٤٠-١٠٤١) الذي -بعكس ملك مَلَلْ الذي كان سونينكيًا- كان من التكرور[١]. ومهما يكن من أمر، فإن رعية هذا دخلوا الإسلام غالبًا، مشكِّلين أول الشعوب المسلمة السوداء المحكومة أيضًا بالإسلام.

وسرعان ما صار للإسلام الإفريقي الوليد أثر الدومينو عندما أسلمت الأرستقراطيات السودانيّة المتجاورة في حوض النّهر. وقد قدّم ابن سعيد المغربي (١٢١٣-١٢٨٦) في حوالي منتصف القرن الثالث عشر تقريرًا عن انتشار الإسلام في أوساط التكرور علىٰ غرب نهر السنغال:

> وأول ما يلقاك علىٰ غربي النيل من مدائن التكرور مدينة قَلْنْبو، وهي فرضة مشهورة، وكانت في زمن أبي عبيد البكري للكفار. وأما في عصرنا فما علىٰ شاطئ النيل من بلاد التكرور مدينة إلاّ وقد دخَلَها الإسلام وجميعها لسلطان التكرور. وقاعدتُها علىٰ جانبي النيل واسمها تكرور وبها عُرِفوا. ونسلُهم يُقالُ له مغزاوة[٢].

ولعلّ أصول هذه الأسلمة السريعة تعود لمبادرات النبلاء السودان. فقد أسلمَ ملك سِيلاَ علىٰ يدي وَرْجَابِي الذي كان قد شرع في الأسلمة العسكرية عندما كان يهاجم مملكة غَالاَنْبُو، محقِّقًا قوة كبيرة لدولته الإسلامية التي أصبحت توازي غانا في الشرق. وفي الوقت نفسه، وربما قبله، أسلمت دولة غَاوْ، التي عرفها البكري باسم كَاوْكَاوْ، في حوالي ١٠٠٩-١٠١٠ عندما أسلم ملكها كُوسَوِي[٣]. ومن المهمِّ أن نعرف أن كَاوْكَاوْ وبلاد التكرور دخلت الإسلام في مدّ ذاتي

---

(١) هو ملك من التكرور بحسب لشاتلير، واسمه باراميندانا وحج في عام ١٢١٨.

Lechatelier, 80.

(٢) أبو الحسن علي بن موسىٰ بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العَربي (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠)، ص ٩٠-٩١.

(3) M. El Fasi and I Hrbek. The Coming of Isalm and the Expansion of the Muslim Empire. In Unesco International Scientific Committee for the Drafting of a General History of Africa. *General History of Africa: (vol III) Africa from the Seventh to the Eleventh Century*. Ed. I. Hrbeh. California: James Currey, 1992, 31-92, p.40.

وبشكل مستقل عن الجهاد المرابطي[١]، إلاّ أنها بدأت تصعد بفعل علاقاتها مع المرابطين حيث حارب لاَبِي بن وَرْجَابِي، ابن الملك الذي أسلم، إلىٰ جانب يحيىٰ بن عمر في قمع ثورة جدالة في آدرار في عام ١٠٥٦[٢]. كما أن ٤٠٠٠ مقاتل من السودان، الذين ربما كانوا تكرورًا، حاربوا في الزلاقة مع يوسف بن تاشفين[٣]. ونعرفُ أن الأخير حصّل كثيرًا من العبيد السودانيين، الذين أعادَ بهم هيكلة جيشه. كما يبدو أن المرابطين الذين بقوا في الصحراء في سلطة أبي بكر بن عامر، كانوا علىٰ علاقة قوية بمملكة التكرور هذه؛ بل إن تحالفًا وتزاوجًا قد حدث من خلال أبي بكر بن عمر نفسه، الذي أنتج زواجه من فاطمة صال التكرورية أسرة من نبلاء التكرور ظلت حاكمة لقرون، حيث ستنتسب لها مملكة والو أو شمامة لاحقًا[٤].

إلاّ أن القرن الثاني عشر كاد يفوت وهذه المملكة التكرورية ما تزال متقوقعة في جنوب نهر السنغال، وإن كانت وتيرة توسُّعها سريعة فامتدّت عبر مجال التكرور إلىٰ الضفة اليسرىٰ في القرن الثالث عشر، حيث كانت مدينة سلي السودانية «علىٰ ضفة نهر النيل وبشماله» حسب الإدريسي (١١٠٠-١١٦٥). بل إن الإدريسي تحدّث عن مناطق آوليل ودو وبرسي ومورة باعتبارها في مجال السودان، وربما تعلّق الأمر بحالة توسُّع[٥]. وتحدّثَ ابن سعيد المغربي عن وجود مملكة التكرور علىٰ ضفتي النهر أو «جانبي النيل»[٦]. وهي الفترة نفسها التي استلم فيها ماري جاتا الحكم، وكان ابنَ باراماندا، وقد قضىٰ علىٰ مملكة

---

(1) Umar Al-Naqar. Takrur the History of a Name .*The Journal of African History*, Vol. 10, No. 3 (1969), 367..

(٢) البكري، ص ١٦٧-١٦٨.

(3) Al-Naqar, Takrur, 367.

(٤) المختار بن حامدن، التاريخ السياسي، ص ٥٨-٥٩.

(٥) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تصحيح هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، الجزائر، ١٩٥٧، ص ٢-٤.

(٦) ابن سعيد المغربي، ص ٩٠.

السوسو، جاعلًا بلاد التكرور تتوسّعُ شرقًا جنوب النهر[١].

إذن في جنوب نهر السنغال، وأحيانًا شماله، كان التكرور يبنون مجالًا يضمُّ عدّة هويات. وكانت مدينتهم، سلي، مزدهرة وعلىٰ شمال النهر وجنوبه، وتضمُّ سباخ وتجمعات آوليل، التي كانت صنهاجية ثم أصبحت سودانية في عهد ابن سعيد المغربي. ولكن أعظم مدنهم كانت مدينة تكرور في جنوب النهر، التي رغم ما يبدو أنّه هويّتها السودانيّة صرفًا، إلاّ أنّها كانت تستقبل التجار المغاربة باستمرار. وأحيانًا كانت علاقة التكرور بجيرانِهم علاقة حرب أكثر مما كانت علاقة تجارة. وربما كانت مدينة سلي مدينة مواجهة واحتكاك مع سكان الصحراء؛ إذ وصف الجغرافي العربي أهلها بأنهم «أهل نجدة». أما مدينة تكرور، البعيدة شيئًا ما عن هذا الاحتكاك، فقد كانت مدينة تجارة أساسًا، رغم أن عموم المدن التكرورية (برسي وسلي وتكرور) كانت تقوم بحملات نهب علىٰ التجمعات السودانيّة في أرض لملم في مدينتي دو ولملم، التي ربما كان أهلها ذوي أصل يهودي[٢].

ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلي وأكثر تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصىٰ بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم. وطعام أهلي سلي وأهل تكرور الذرة والسمك والألبان وأكثر مواشيهم الجمال والمعز ولباس عامة أهلها قداوير الصوف وعلىٰ رؤوسهم كرازي الصوف ولباس خاصتها ثياب القطن والمازر[٣].

❁ ❁ ❁

يتعيّن علينا هنا أن نُعيدَ أن تكرور في القرن الثاني عشر اختلفوا عن التكرور اللاحقين في القرن الثامن عشر الذين كانوا عبارة عن وحدتين إثنيتين مختلفتين وظيفيًا: البولار، الذين عرفوا أيضًا بالفُلاّن، وهم أصحاب البشرة الأفتح والعاملون في رعي الماشية؛ والتكرور، السّود بشرةً، والعاملون في مجال

(١) لشاتلبير، ص ٨٠.

(٢) الإدريسي، ص ٤-٥.

(٣) نفسه، ص ٤.

الزراعة. وبطبيعة الحال، فقد كانت هذه الفوارق موجودة لدىٰ التكرور القدماء؛ إذ يقول لنا ابن سعيد إن التكرور «قسمان: قسم تحضّر ويسكن المدن، وقِسم رجاله في البوادي»[١]. إلا أن التكرور اللاحقين، وإن ضمّوا تنظيمًا شبيهًا، لم يكونوا نفس من تكلّم عنهم ابن سعيد. غير أن المصادر الفرنسية في فترة الاستعمار نسبَت لهؤلاء البولار أصلًا شماليًا ربما يعود إلىٰ القرن الثاني، حسب دراسات موريس ديلافوس. وقد تضاربت الحفريات والأناسة الاستعمارية في هذا الزعم مع التقاليد المحلية. وعلىٰ العموم، فثمة روايتان عن الأمر: **الأولىٰ** أنهم كانوا مجتمعًا يهوديًا سكن في سوريا قديمًا ثم هاجروا أولًا إلىٰ برقة الليبية، حيث عاشوا في الحضارة الزراعية. وحسب هذا السّرد فقد فرّوا فرارًا جماعيًا بعد نكبة اليهود في بداية القرن الثاني ووصلوا إلىٰ بلاد السودان وسكنوا بين السونينكي في النيجر العليا في القرن الثاني، وسرعان ما سيطروا علىٰ مملكة غانا وأصبحوا العنصرَ الأبيض الذي تحدّثَتْ عنه الروايات القديمة فحكموا المملكة الغانية من القرن الرابع إلىٰ القرن الثامن. وعندما أفلَ نجمهم بعد الإطاحة بملكهم انتقلوا، بحسب هذا التّرتيب، من العيش بين السونينكي إلىٰ التكرور، ووسط هؤلاء عرفوا بالفُلان[٢]، الذين أحكموا سيطرتهم علىٰ المسارح والسهول وربّوا فيها قطعانهم ومواشيهم. أما **الرواية الثانية** فهي رواية شفوية في صميم تقاليد الفُلاّن، وهي أنهم بربر استطاعوا التسلّل إلىٰ ما وراء نهر السنغال حيث حكموا هنالك باعتِبارِهم أول سلالة حاكمة لمملكة الفوتا تورو وهي سلالة دياعوغو، وتزاوج هؤلاء طويلًا مع التكرور المستقرِّين ومع الرُّحَل من البولار وذلك قبل وبعد إسقاط دولتهم من قبل السلالة السوداء، المعروفة بالمانا[٣].

يختلف تكرور القرن الثاني عشر فما بعده عن التفاصيل اللاحقة؛ ولكن غنىٰ الثقافة التكرورية لم يكن يعود لعناصر خارجية بقدر ما كان عائدًا لعوامل القوة

---

(١) ابن سعيد، ص ٩١.

(2) H.R. Palmer. "Delafosse's account of the Fulani," 195-196.

(3) Nehema Levtzion. The Sahara and the Sudan form the Arab Conquest of the Maghrib to the rise of the Almoravids. In J. D. Fage and Ronald Oliver (Eds) The Cambridge History, vol 2: From c. 500 B.C. to 1050, 637-680, p. 656, 676.

الذاتية في المجموعة وتفاعلها مع الثقافة المحلية. فسرعان ما حقّق **المانا** ازدهارًا اجتماعيًا وسياسيًا عندما وُلدت فيهم طبقة محاربة متمخِّضة من القوىٰ المُقاتلة في المجتمع الزراعي. ولكنهم كانوا أساسًا مجموعة من البدو الرحل ومربي المواشي المتمرِّسين في الكرّ والفرّ في الأراضي الشاسعة. ومع ازدهار الغزو باعتِباره نمط إنتاج، فإنهم استفادوا من الفتوحات المرابطية ليذهبوا إلىٰ الأعالي في حروب المالكية المقاتلة. وفي الجنوب كانت مملكتهم تُخضِعُ العناصر الإثنية الخارجة عنها. وتمامًا كما نشأت مجموعات دينية من الزوايا من الإسلام المرابطي في الشمال، فإن بلاد التكرور شهدت أيضًا نشوء رجال الدين. وتمامًا مثلهم، فإن هؤلاء المتديِّنين لن يتحوّلوا إلىٰ طبقة كبيرة إلا مع القرن الثامن عشر عندما ظهرت في التكرور طبقة من المتعلِّمين الذين عُرفوا باسم قريبٍ من الزوايا، وهو «**التورودبة**» الذي كان يحيل إلىٰ المتديِّنين أو التائبين.

في القرن الرابع عشر كان نفوذ «التكرور الأوائل» أو التكرور الظّنيِّين قد انقشع كما انقشع نفوذ المرابطين، وقد انفسح المجال كثيرًا لفصائل ماندية أخرىٰ ليصبحوا القوة الأبرز في المنطقة وذلك لدىٰ تأسيسهم لمملكة مالي، ولكن العالم ظلّ يُشيرُ إليهم باسم التكرور. والواقع أن مملكة مَلَلْ أو مالي لم تكن مملكة التكرور، وإنما كان هذا هو الاسم الذي عرفت به بلاد السودان رسميًا في المشرق وخصوصًا في مصر والشام من خلال جغرافيا المماليك. وصحيح أن كلمة «مالي» كانت تعني الماندي في لغة التكرور، الفلان[1]، ولكن نفوذ «التكرور» انقشع في القرن الثالث عشر لصالح مملكة مالي. ورغم أن ابن فضل الله العمري لاحظ في وقت مبكر أن مالي ليست بلاد التكرور، وأن التكرور ليست سوىٰ بقعة في أرض مالي، وأن ملك مالي يُفَضِّلُ أن يسمّىٰ ملك مالي علىٰ أن يُسمىٰ ملك التكرور[2]؛ إلا أن ابن خلدون، الذي استقىٰ معلوماته من الإدريسي، لم يأخذ، إن سمع أصلًا، برغبة الملك وظلّ يطلق عليها «**بلاد التكرور**» حتىٰ بعد ذلك. وسيتبعه في ذلك المؤرخون العرب اللاحقون، أمثال

(1) Bovil, 86.

(٢) العمري، ج٤ ص ١٠٧-١٠٨.

شهاب الدِّين القلقشندي (١٣٥٥-١٤١٨) وتقي الدين المقريزي (١٣٦٤-١٤٤٢) وشمس الدِّين السخاوي (١٤٢٨-١٤٩٨) وزين العابدين ابن إياس (١٤٨٨-١٥٢٤)، بل وسيوسِّعون مفهوم بلاد التكرور ليطال كل المجال، وأحيانًا حتىٰ بُورْنو وكَانِمْ حيث اعتقد العمري أن بلاد التكرور متاخمة للحبشة. ولاحقًا سيقوم المؤرخون الأفارقة المشبَعون بالثقافة العربية أمثال الكاتي والبرتلي، وحتىٰ السياسيون ورجال الدول المثقفون المتأخِّرون أمثال أحمد بلّو، ملك سوكوتو (١٨١٧-١٨٣٧) في القرن التاسع عشر، الذي ألّف كتابًا في تاريخ بلاد التكرور، سيقومون بإعادة توظيف عبارة التكرور، رغم اعتراف أحمد بلّو مثلًا بغرابة الوصف[١].

❁ ❁ ❁

إلاّ أن الحقيقة أن هذا المجال لم يكن كلية مجرد أسطورة مشرقية إذا استثنينا الخلط بين السونينكي والتكرور. فقد وُجدت شبكة علاقات ظلّت تتطور وتعلّقت أساسًا بالسيطرة السياسية السودانية وبالازدهار الثقافي للصنهاجيين والعرب وبحياة تجارية وتواصل ثقافي قوي بين كل هذا. أصبح المجال، بغضِّ النظر عن اسمه، يضم تشكُلات اجتماعية كبيرة ومتفاوتة وإن كان كثيرٌ منها معوزًا ومفقّرًا ومُعدَمًا خصوصًا في مملكة مالي التي كانت -بحسب العمري- «قشفة المعيشة، قليلة أنواع الأقوات، وأهلها طوال في غاية السواد وتفلفل الشعور»[٢]. وبالنسبة إلىٰ بقيّة المشاهدِين العرب، فقد كانت عادات اللبس دليلًا آخر علىٰ فقر هذه الشعوب: «الغالب علىٰ لباس السودان التكرور وغيرهم الجلود. وإذا احتشم الواحد منهم كان الجلد مدبوغًا». وكان «الغالب علىٰ مأكلهم القطانيا. والخبز عندهم لا يوجد إلا طرفة عند الملوك المتخلِّقين بأخلاق البيض. وخيلهم قصار غير سابقة. وسلاحهم دبابيس الأبانوس»[٣]. ولكن العلاقات التجارية المتسارعة كانت تعد بكثير من الثراء، وسرعان ما وُلدت طبقة تجار وفقهاء «تكرورية»

---

(1) Levtzion "The Sahara and the Sudan form the Arab Conquest of the Maghrib to the rise of the Almoravids," p. 656, 676.

(٢) العمري، ج٤ ص ١٠٧.

(٣) أبو الحسن علي بن موسىٰ بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العَربي (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠)، ص ٩١.

اغتنمت التواصل مع الأسواق والدعوة الإسلامية والعلاقات بين شعوب بلاد التكرور وتأمين التبادل التجاري بينها، وبدأ المجال يتمدَّد باطراد وسرعان ما امتصّ الكثير من الصنهاجيين والمسوفيين الذين كانوا في جنوب الصحراء[١].

في أساسِها نشأت الحاجة للتوسع في بلاد السودان من البحث عن المصادر. فقد كانت البلاد في حاجة ماسة للأملاح التي أصبحت لا تشكِّلُ عصب الحياة فقط، بل تتحكّم في الموارد السودانية الغنية كالذهب والحبوب، وحتىٰ العبيد. في بداية القرن الحادي عشر تمكّنت مملكة غانا من حلِّ هذه العضلة الاستراتيجية عندما بسطت نفوذها علىٰ أوداغست. وهو ما اعتقد البكري أنه سبَبُ تدمير المدينة من قبل المرابطين. ورغم أن المرابطين أعطوا دفعًا للصنهاجيين، إلا أنهم أعطوا أيضًا دفعًا للتكرور، وفتحوا مجالًا للتواصل معهم واستجلابهم إلىٰ الصحراء والمغرب وإسبانيا. وبعد المرابطين ظلّت المشكلة الاستيراتيجية المتعلِّقَة بالسيطرة علىٰ الأملاح مطروحة. ولقد حلّ التكرور هذا بالسيطرة علىٰ أملاح آوليل الغنية في القرن الثاني عشر[٢]، ثم لاحقًا ببسط الماندىٰ النفوذ في الشمال للسيطرة علىٰ أملاح تغازة. وهكذا حرّروا الذهب السوداني من البقاء رهنًا للأملاح الصنهاجية وظهرت مملكة بثرائها الذي خلب ألباب جغرافيي العصور الوسيطة. كانت السلطة المركزية الصنهاجية قد تفكّكَت في دولة المرابطين الثانية، وكانت أوداغست وكومبي صالح قد بدأتا في الذبول لصالح مراكز جديدة: بيرو، التي ستصبح ولاتة، وعاصمة الماندي الجديدة، نياني، التي حوّل الملك سونديانا مركز الحكم إليها بدلًا من جريبا، ثم لاحقًا ستظهر تمبكتو. اختفت أو ضعفت المراكز القديمة وظهر مجال كبير، وبالأخص إلىٰ جهة الشرق الجنوبي، ضمَّ التجار والمزارعين والفلاحين والحدادين الذين كانوا يتبادلون فيما بينهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) يتجلّىٰ أن سيطرة الصنهاجيين علىٰ ما يليهم من المجال التكروري كانت واضحة في القرن الثاني عشر، حيث يشير أبو حامد الأندلسي في كتاب عجائب المخلوقات إلىٰ سيطرتهم علىٰ ما سماه بالتكرور بعد حروب بني غانة مع الموحدين، ويعدد ملوكهم الأوائل من إبراهيم بن عمر التكروري إلىٰ عثمان بن إدريس بن إبراهيم. (المختار بن حامدن، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٥٨).

(٢) انظر موقع آوليل في جغرافية ابن سعيد وابن فاطمة: ابن سعيد، ص ٩٠.

كانت ولاتة في جنوب موريتانيا هي تاج المجال الجديد. بدأت المدينة الصنهاجية تبرز سريعًا في القرن الثالث عشر وربما قبله. ورغم أن جامع التاريخ الموريتاني، المختار ولد حامد، يذهب إلىٰ أنها تأسّسَت تحديدًا في عام ١٢١٤[١]، إلا أنها كانت موجودة قبل ذلك في شكل تجمُّعٍ فلاحي وتجاري للسونينكي وكان اسمها بيرو[٢]. بل إن جاك مينيه لا يستبعد كثيرًا أن تكون قد أُنشئت من قبل يهود فيما قبل الإسلام[٣]. ومهما يكن، فإنها دالت في القرون اللاحقة إلىٰ الماندي. وكانت قيمتها المدنية والتجارية أساسية؛ ذلك أن بيرو كانت تعني بالمانديكية «**المكان الوارِف**» أو «**الكوخ الخشبي**»[٤]. وربما لم تختف سحنتها السودانية الأساسية إلا مع أفول أوداغست وكمبي صالح، وعندما تدفّقَت إليها جموع من الصنهاجيين، المسوفيين غالبًا، علىٰ امتداد القرن الثالث عشر إلىٰ الخامس عشر[٥]، خصوصًا أن هذه الفترة، بدءًا من العهد الموحدي في المغرب، شهدت التحّول من الخط التجاري الغربي الذي كان يمرُّ عبر أوداغست إلىٰ الخط التجاري الشرقي[٦]. وربما سهّلَ وصول البربر من الصحراء وحتّىٰ من جنوب المغرب إليها. وقد حدث هذا في عهد مبكر، منذ منتصف القرن الثالث عشر، وربما قبله، عندما أصبحت تتسمّىٰ بإيولاتن، عندما تدفّقَ إليها التجار المغاربة، سواء من الجزائر أو من المغرب أو من الأندلس. ولعلّ هذه الحركة قد بلغت أوجها عندما وصل إليها أبناء المقّري، وسهّلوا التجارة إليها بالقيام بالأدوار القديمة التي لعبها أبناء عقبة بن نافع في القرن التاسع، وهي حفر الآبار علىٰ الطريق الجديد وإنشاء شركة تُتاجِر بينها وبين المغرب، وربما حتّىٰ بينها وبين

---

(١) المختار بن حامد، موسوعة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٦٢.

(٢) ربما كان البربر هم السكان الأوائل لبيرو؛ إذ يذهب مؤرخ الصحراء بوفيل إلىٰ القول إنه تم إنشاؤهما من قبل البربر الذين هربوا إليها لاجئين بعد القلاقل التي حدثت بعد سقوط مملكة السوسو، وكان وجود البربر في الممالك السودانية مشاهدًا في القرن العاشر والحادي عشر من قبل الرحالة العرب.

(3) Meunié Jacques. Cités caravanières de Mauritanie Tichite et Oualata. In: Journal de la Société des Africanistes. 1957, tome 27 fascicule 1. pp. 19-35

(4) Cleaveland, Becoming Walata, 46-47.

(5) Lechatelier, 46.

(6) Ould Cheikh, *Nomadisme, Islam et Pouvoir politique*, Tome I, p. 69.

الأندلس، مقرّهم الأصلي. وقامت هذه الشركة بمأسسة التجارة باتخاذ عَلَمٍ وطَبْلٍ لها. كان أبناء المقّري خمسة من أحفاد عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقّري، الذي كان قاضيًا تلمسانيًا في فاس وعالمًا ذا أثرٍ وأتباع. وقد استقرّ اثنان منهم في تلمسان، هما أبو بكر ومحمد، ابنا المقّري. وتوطّد الثالث، عبد الرحمن، بفاس. أما في ولاتة فقد نزل عبد الواحد وعلي ابنا المقّري وبنوا المزارع والدور وظلّوا يبعثون التجارة علىٰ القوافل لإخوانِهم في تلمسان وفاس[1]. وقد نقلَ لنا أخبارَهم حفيدُهم أحمد بن محمد المقّري (١٥٧٨-١٦٣٢)، صاحب **نفح الطيب**:

ثم اشتهرت ذريّته علىٰ ما ذُكِرَ من طبقاتِهم بالتجارة، فمهّدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتّخذوا طبلًا للرحيل، ورايةً تُقدّمُ عند المسير، وكان ولدُ يحيىٰ الذين أحدهم أبو بكر خمسةَ رجال، فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه علىٰ السواء بينهم والاعتدال، فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومَتا نَسَبي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بإيوالاتن، فاتّخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار وتزوّجوا النساء واستولَدوا الإماء، وكان التلمساني يبعثُ إلىٰ الصحراوي بما يُرْسَمُ له من السلع، ويبعثُ إليه الصّحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يُعَرِّفُهُما بقدر الخسران والرجحان، ويكاتِبُهما بأحوال التجار وأخبار البلدان، حتّىٰ اّتسعت أموالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم، ولما افتتح التكرور كورة إيوالاتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمع من كان بها منهم إلىٰ نفسه الرجال، ونصبَ دونها ودون مالهم القتال[2].

وبطبيعة الحال، لم يكن نجاح المدينة فقط بسبب علاقات مثلّث ولاتة-تلمسان-سِجلماسة. ويُنبِئنا المقّري نفسه عن دخول خطٍ جديد من مصر لاحقًا

(١) المقّري، نفح الطيب، المجلد الخامس، ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٢) نفسه، ص ٢٠٥.

استطاع غلبة خط تلمسان-سِجلماسة[١]. وربما كان سبب هذا انتظام المدينة في المسالك القوافلية الإسلامية الكبيرة؛ إذ يرىٰ دارس المدن القوافلية والتجارية الموريتانية، جاك مينيه، أنها كانت مركز قيمة كبيرة في هذه الفترة بفعل ثروتها الذهبية وموقعها الاستيراتيجي الذي جعل منها منطلقًا للحج وللإشعاع العلمي وانعكس علىٰ قيمتها التجارية[٢]. كما هاجرت إليها المجموعات الجدالية واللمتونية التي غادرت كمبي صالح بعد سيطرة السوسو عليها[٣]. وقد بدأوا جنبًا إلىٰ جنب الأغلبية من الصنهاجيين المسوفيين المتزاوجين مع العرب في التأثير بسرعة في المدينة وتغيير هويتها. وكما أسلفنا فمن هنا سيصبح اسمها، إيولاتن، الاسم الذي علق في ذاكرة المقّريين، وهو التحريف الصنهاجي لاسمها الماندیكي[٤]. وفي الجنوب في مملكة السونغاي سيطلقون عليها كَاناتا أو ولاتا[٥]، وهو الاسم نفسه الذي سيعرفها به ليون الإفريقي: كَوالاتا[٦]، الذي كان في الواقع تحريف إيولاتن، الاسم السونينكي-المسوفي للمدينة. ثم سيستقرّ اسمها علىٰ ولاتة بعد سيطرة المهاجرين المتعربين عليها[٧].

ولكن هؤلاء الصنهاجيين تعايشوا فيها مع الماندي وبالأخص السونينكي والسونغاي. وقد ظلّت لغة الأخيرين منطوقة في ولاتة حتىٰ وقت مرور ليون الإفريقي بها في القرن السادس عشر[٨]، وكان ساكنوها منهم يقطنون بمنطقة الواحات بينما سكن المسوفيون في جانب آخر من المدينة، ولكن تأثيرهم كان

---

(١) نفسه، ص ٢٠٦.

(2) Meunié Jacques. Cités caravanières de Mauritanie Tichite et Oualata. In: Journal de la Société des Africanistes. 1957, tome

(3) Lechatelier, 46; Bovill, 89.

(4) Timothy Cleaveland, *Becoming Walata: A History of Saharan Social Formation and Transformation*, Portsmouth, NH: Heinemann, 2002, 46-47.

(5) E. Hamy. Tomboctou, 938.

(6) Leo Africanus. The History and Description of Africa. Trans. Robert Brown. London: The Halyuk Society, 1890, 124.

(7) Cleaveland, 46-47.

(٨) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ج ١ ص ٣٧.

قويًا بحيث إن لغتهم تغلغلت في اللغة الماندية وجعلتها مختلفة عن الماندية الموجودة في الجنوب، حيث ظهرت مملكة مالي ثم مملكة السونغاي لاحقًا[١]. أما علىٰ مستوىٰ السكان البربر أنفسهم، فقد حدثت تحوُّلات في هوية عناصرهم والعناصر العربية التي قدمت باكرًا وتزواج فيها المسوفيون بالعرب وبالماندينغ، ما أنتج خليطًا جديدًا هو **مسوفة الثانية** أو ما عرفه لشاتلييه بـ**مشظوف**، وإن في وقت مبكر هو القرن الثالث عشر[٢]، (أي قبل تأسّس القبيلة اللاحقة التي ستعرف بمشظوف، وإن كان المختار بن حامد يرىٰ علاقة مباشرة، وربما امتدادًا، بين مسوفة ومشظوف). ولم يكن الانصهار الثقافي للبربر والزنوج والعرب لاحقًا مجرد مسألة لسانية، بل تمّ حبكها بالمصالح التجارية اليومية حيث في وقت مبكر كانت القوافل تَفِدُ فيه علىٰ المدينة التجارية من جميع الجهات، من مصر ووجدة وفزان ووادي درعة والسوس الأقصىٰ. في القرن الثالث عشر بدأ هذا الازدهار يعود بالنفع علىٰ تمبكتو، ويبدو أن هذا قد حرّك أطماع السلطة العسكرية الموجودة في الجنوب، مملكة مالي، التي أعادت نفس حركة مملكة غانا ضد أوداغست، فقامت ببسط نفوذها علىٰ المدينة. لكن هذه المرة عسكريًا[٣].

عادَ جزءٌ كبير من ثراء ولاتة إلىٰ سبقِها في تجارة الملح. وقد نجح المسوفيون في المحافظة علىٰ التوازن الاستيراتيجي مع مملكة مالي فظلّوا مسيطرين علىٰ السباخ في تغازة، شمال مالي إلىٰ جهة الجزائر وشرق المجابة الكبرىٰ الموريتانية، التي كانوا يستَبْقُونَ فيها عبيدهم طوال الموسم. وكانت تغازة مجموعة سباخٍ ومراكزَ لاستخراج الأملاح؛ وحسب المتداول فقد كان كلّ شيء فيها يعبِّرُ عن الثراء بالملح، فحتىٰ بيوتها ومسجدها كانت مشيدة بالملح، وربما لم يكن أهاليها يحتاجون لغير الملح في البناء إلاّ في سقوفها التي كانت تُغطّىٰ بجلود الإبل. كان المسوفيون يشحنون هذا الملح علىٰ أظهر الإبل ويبيعون الحِمل منه بثمانية إلىٰ عشرة مثاقيل في ولاتة، وهو عائد كبيرٌ جدًا. وكان هذا الربح

(1) Cleaveland, 38.

(2) LeChatelier, 46.

(3) E. Hamy. Tomboctou , 938.

يتضاعف في مالي؛ فيصل أحيانًا إلىٰ أربعين مثقالًا[١]. أما التجار الذين لم يستثمروا في الملح، فكانوا يتاجرون أيضًا في بعض المواد الإضافية كالعطور والزجاج[٢].

وقد انضاف لقيمة المدينة أنها صارت معبرًا إلىٰ السودان، فأصبحت مرحلة شَرْطِية من مراحل الطريق الصحراوي إليه، أو مرحلة من مراحل الطريق السوداني إلىٰ العالم العربي. وسرعان ما أدّىٰ هذا التعديل علىٰ الطريق القديم، الذي كان يمرُّ بأوداغست، إلىٰ إقصاء الأخيرة تدريجيًا ثمّ نهائيًا بعد قرن ويزيد. ومع بدء تواصل الملوك السودانيين مع المدن العربية والإسلامية، التي أصبحوا يقصدونها بدلًا من مجرّد استقبال قوافِلها ودُعاتها، أصبحت ولاتة منزلًا واستراحةً لأغنياء الجنوب العابرين. لذا مرَّ بها وتوقّفَ مانسا موسىٰ، العاهل الباذِخ الشهير، الذي حكَمَ ما بين ١٣١٢-١٣٣٧، وذلك في أثناء رحلته للحج[٣]. ولعلّ مما يدلُ علىٰ أهمية طريق ولاتة أنه لم يُعتَمَدْ دون مخاطرة؛ ذلك أنه كان يُعرِّضُ القوافل لأن تُفقد في المجابة الكبرىٰ كما كان يحدث للقوافل في العهد الطولوني، وكما حدث مرة عندما فنَتْ قافلة بأكملها في الصحراء الكبيرة، كما أن الموت عطشًا في الطريق كان حدثًا مألوفًا، كما نقَلَ ذلك ابن بطوطة[٤].

❁ ❁ ❁

لنتوقّف قليلًا عند الوضعية السياسية التي ازدهرت في ظلّها ولاتة. كانت هذه الفترة، فترة القرن الثاني والثالث عشر فما بعدها، فترة ضعف عسكري للصنهاجيين، وفي غياب مركزية عسكرية أو قبائل صحراوية غازية مرتبطة بالجنوب قفز الماندي والولوف إلىٰ الجنوب الغربي للصحراء، وتقدّموا شمالًا فيما وراء النهر في القرن الثالث عشر، وسيزيد نفوذهم بشكل سريع طوال العقود

(١) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٩١٤، ج ٢ ص ٢٣٢-٢٣١.

(٢) نفسه، ص ٢٣٥.

(3) Cleaveland, 55.

(٤) ابن بطوطة، ج ٢ ص ٢٣٢-٢٣١.

القادمة من خلال قوة السوسو وواكاري، الذين سيطروا علىٰ لمتونة ومسوفة المحاذين لهم في حوالي عام ١٢٣٣، ووصل نفوذهم حتّىٰ تخوم تگانت وآدرار في عهد مانسا موسىٰ (١٣١٢-١٣٣٧)[١]. وكما أسلفنا، فسيشتهِرُ هؤلاء السونينكي في العالم العربي بأنهم تكرور، وقد وَصَلَ ملكهم، مانسا أولي -الذي كان ابنًا لماري جاتا، وحفيدًا لسوندياتا، وهم نبلاء وملوك مالي- إلىٰ مصر في رحلة شهيرة في عهد المماليك. أما مانسا موسىٰ فقد قام برحلة أشهر عندما وصل إلىٰ المغرب وقابل السلطان أبا الحسن المريني ملك المغرب (١٣٣١-١٣٥١). وصل مانسا موسىٰ للحكم في عام ١٣١٢، أما العالم الخارجي فلن يتعرّف إليه أكثر إلا في عام ١٣٢٤ عندما قام برحلة حجٍّ كبيرة مرَّ فيها بولاتة وتوات ومن هنالك وصل إلىٰ القاهرة محاطًا بجيش من الأتباع. وقد حرص طوال السفرية علىٰ إظهار بذخه الذي استخلَبَ وأثار انتباه المؤرخين العرب. وحرَصَ علىٰ أن يمشي في الساحات العامة علىٰ جواده المُذّهب متقدمًا موكبًا من ٥٠٠ عبد يحمل كلٌّ منهم ٥٠٠ مثقال من الذهب. ويبدو أن إسرافه وبذخه أفنىٰ قناطير الذهب التي كانت عنده، فاضطر إلّىٰ مواصلة طريقه معتمدًا علىٰ الديون، كما يُخبِرُنا العُمري. وبعد عقود وقرون طويلة كان العالم ما زال يتحدّث عن بذخه، بل إن تصنيفًا صحفيًا في عام ٢٠١٢ وصفه بأنه «أغنىٰ رجل في التاريخ»[٢].

كان هؤلاء الماندي ملوك مالي والسونغاي الذين استطاعوا السيطرة علىٰ مملكة مالي، التي قامت بالتزاوج والنفوذ البلاطي في أعقاب مملكة غانا، وذلك بعدما نجحوا في إبعاد السوسو غربًا؛ وهكذا بسطوا سلطتهم حتىٰ السنغامبيا جنوبًا مع القرن الثالث عشر[٣] وحتىٰ ما وراء ولاتة شمالًا. وقد جزم المستشرق الكبير، هنري بارت، باستمرار حكم هذه المملكة لجنوب الصحراء، فيما بعد القرن الثالث عشر، مشيرًا إلىٰ أن أحد ملوكِها، سني علي (١٤٦٤-١٤٩٢)، هو من

(1) Hamet, 6-7.

(2) http: //akhbar.alaan.tv /video /Misc /richest-man-history /

(3) Lechatelier, 36.

منح للبرتغال رخصة بإنشاء حصن في آدرار في القرن الخامس عشر عندما استقبل سفارة منهم قادمة من عند الملك جان الثاني (١٤٧٧/ ١٤٨١-١٤٩٥)[١]. إلاّ أن مجال السونغاي حافظَ علىٰ تعدُّدِ الأعراق وتعايشها كما في **بلاد التكرور**، بل إن السونغاي كانوا عنصرًا ضئيلًا في مجموع الماندي، وإذا كانوا قد سيطروا سياسيًا في الجنوب إلاّ أن ثقافة الماندي ظلت فاعلة في التواصل اليومي دون أن تتأثّر كثيرًا[٢].

لم تُضعِف هيمنة السونغاي من التعدُّد الثقافي في مجال **بلاد التكرور**. بل إن ما مدّه ووسّعه كان القوة التجارية القائمة علىٰ موارد المدن الكبيرة في المجال. وقد بدأت تمبكتو، السودانية ثمّ الطوراقية، تظهر ازدهارًا شبيهًا بولاتة؛ وأصبحَت منذ القرن الرابع عشر توازي غاو، مدينة مانسا موسىٰ، حيث عملت أولًا رابطًا بين جني وولاتة، النقطتين التجاريتين الكبيرتين بين السودان والصحراء؛ وأضحت مقصدًا للتجار المقايضين في جوز الكولة والملح والحبوب والتبر أو دقيق الذهب[٣]. أما في الشمال فقد ظلّ المسوفيون والطوارق أيضًا حاضرين، مستقلِّين ثقافيًا ولغويًا رغم خضوعهم السياسي لدولة السونغاي. ولعلّ سيطرة السوسو أو السونغاي علىٰ ولاتة تزامنت مع انهيار بيرو، أو ولاتة الأولىٰ، بفعل الفيضانات[٤]. أما السيطرة الزنجية علىٰ تگانت فلا شك أنها كانت في مصلحة الغانغارا الذين كانوا زنوجًا مزارعين في المنطقة، وكانوا سكانًا قديمين حاوَلَ المرابطون إقصاءهم أو إدماجهم في الإسلام. وستظلُّ هذه السيطرة قائمة إلىٰ ١٤٦٨-١٤٦٩ عندما نجح المسوفيون والطوارق في التمدُّدِ جنوبًا وإخضاع المنطقة وبناء تمبكتو لصالحهم[٥].

(1) J. Ancelle, p.135.

(2) Lechatelier, 38.

(3) Bovill, 88.

(4) Cleaveland, 46-47.

(5) Hamet, 6-7.

في القرن الرابع عشر كانت السيطرة السودانية علىٰ ولاتة أكثر من مجرد سيطرة نفوذية كما كان شأن إمبراطورية غانا مع أوداغست، بل كانت أمرًا إداريًا واضحًا. وهكذا أصبح البيضان، مثلهم مثل السونينكي الماندي والسونغاي، تكرورًا في أذهان المشارقة والحجازيين. وعندما جاء ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٧٧) إلىٰ إيولاتن في القرن الرابع عشر وجد أن عليها واليًا سودانيًا للسلطان في مالي، وأن هذا الوالي كان يتخِذُ لقب «**فربا**». ولاحظ الرحالة الطّنجي تجبُّرًا سودانيًا علىٰ ولاتة، واعتقد أن السودان يحتقرون البيضان بطريقة تواصلهم معهم. فقد كانت الشؤون التجارية للمسوفيين من تنظيم إداري سوداني هو مشرف خاص يتخذ لقب «**منشاجو**»؛ ولم يكن متروكًا لهم غير مناصب القضاء والتدريس، التي كانوا مؤهَّلين لها بحكم عِلمهم الديني ومعرفتهم باللغة العربية الفصحىٰ. وكانت ولاتة، التي كانت في تلك الفترة في حدود النفوذ السوداني من جهة الشمال[١]، توفِّرُ رأس المال البشري لهذه الطبقة شبه الكهنوتية والإدارية التي كانت تحكم في ولاتة أكثر من غيرها، وإن كان نفوذها سيتسع بعد ابن بطوطة إلىٰ عمق الأراضي السودانية في شمال مالي. وستسمِرُّ هذه الهيروقراطية أو الثنائية السلطوية بين فقهاء وسياسيين من البيضان والسودان حتىٰ مطلع القرن السابع عشر علىٰ الأقل، حيث تحدّث الرّحالة فرناندس عن مَلِكَيْن يحكمان ولاتة المزدهرة تجاريًا[٢].

ستتحسّن وضعية ولاتة السياسية، وإن ليس دومًا الاقتصادية، في عهد ليون الإفريقي، بعد قرون، عندما استطاعت، علىٰ ضعفها مقارنةً بالسودان، أن تحقِّقَ توازن قوة مع السلطان «التكروري» وذلك من خلال اعتمادها علىٰ المقاتلين الصحراويين، وعلىٰ استراتيجية الكَرّ والفرّ. وكنوع من التفاهم منذ عهد سني علي، فإنها أصبحت تقدِّمُ جزية له دون أن يتورّط في حكمها مباشرة. وقد نقل ليون الإفريقي هذه الصورة بتفصيل:

> يؤدِّي الأمير الذي يحكمهم الخراجَ إلىٰ ملك تمبكتو؛ لأن هذا الملك جاء مرة إلىٰ البلاد بجيشه ففرّ أمير ولاتة إلىٰ الحين راجعًا إلىٰ أهله في

---

(١) ابن بطوطة، ج٢ ص ٢٣٣.

(2) Fernandes, 85.

القفار. ورأىٰ ملك تمبكتو أنه لا يستطيع ضبط البلاد كما يجب؛ لأن هذا الأمير سيخلق له متاعب بمساعدة أهله الصحراويين، فاتّفَقَ معه علىٰ أن يؤدِّي إليه خَراجًا معيّنًا، ورجع الأمير إلىٰ ولاتة، كما عاد الملك إلىٰ تمبكتو[1].

❁ ❁ ❁

إلاّ أن المجتمع الولاتي المسوفي، برغم دفعه الإتاوة لغيره وخضوعه الإداري له أحيانًا، استمتَعَ باستقلال وبحياة حرّة واستطاع أهله تصدير ثقافتهم وتسييدها رغم السلطة السياسية والتنظيمية، وأحيانًا السيادية، للسودان. ولا شكّ أن تعدّد موارد ولاتة كان مشجِّعًا علىٰ هذا. فبفعل التجارة التي تبادلت مختلف المصادر، أصبحت المدينة تعيش في جوٍّ من الاستقلالية المجتمعية والأسرية. وقد توفّر من العوائد للمتاجِرين ما سمح لهم بميعشة غنية مقارنة بالفقراء في أقصىٰ مدن المجال «التكروري». ولم يخفَ هذا «الثراء» علىٰ الزوار المُتفطِّنين للحياة اليومية وللظروف المعيشية بولاتة. فقد سردوا لنا أن اللحوم الوافرة، بفعل مجتمعات المنمين والرعاة في الجوار، كانت تُمكِّن الولاتيين من تنويع أطعمَتِهم من الكسكسو (الكسكس) إلىٰ الأرز والدجاج والفوني والعصيدة وطحين اللوبيا. أما مزارعو الجوار في سهول المدينة فكانوا يُوَفِّرون لهم البطيخ، الذي يساهم بدورِه في تلطيف الجو الحار؛ ولعلّه كان صديقًا دائمًا للمائدة الولاتية. وكانت الملابس القطنية المُستَقدَمة من المشرق ومن المغرب هي لباس العامة من الناس، ما دلّ علىٰ حجم كبيرٍ للتجارة القوافلية. أما أرباب الأسر فكان لهم عبيدهم وجواريهم الذين يتبعونهم في أوقات السفر[2].

وبالنسبة إلىٰ زوار ولاتة لم يكن ثمّة تمظهر لحرية مجتمعها أكثر من تمظهره في وضعية المرأة. وبالأصل كان لهذا بعدٌ ثقافي يتعلّق بطبيعة المجتمع الصنهاجي الأمومي. وقد عبّرَ شهاب الدين النويري (ت. ح. ١٣٣٣) عن هذا مرّةً عندما

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ج ٢ ص ١٦٢.

(٢) ابن بطوطة، ج ٢ ص ٢٣٤.

أطلق هذا التعميم: «جميع الملثّمين ينقادون لأمور نسائهم ولا يُسَمّون الرجل إلا بأمه فيقولون: ابن فلانة، ولا يقولون: ابن فلان»[١]. ونعرِفُ من المصادر التاريخية اللاحقة أن الصنهاجيين ظلّوا بالفعل يُحافِظون علىٰ الانتساب للأم، غالبًا مع النسبة للأب أيضًا، كما في أقدم كُتُب الأنساب الموريتانية، التي كتبها مثلًا والد بن خالنا (ت ١٧٩٨). أما في ولاتة، الأقدم جدًا، فلربما تعزّزت هذه الوضعية بفعل التجارة وبفعل الحياة الاجتماعية المنبثقة منها. ومهما يكن من سبب للأمر، فإن العلاقات الحرة بين الرجال والنساء ومصادقتهن ومواعدتهن كانت شائعة في القرن الرابع عشر[٢]. وقد سمحت بازدهار التسرّي واتخاذ الخليلات ومزاوجة الجواري، ما سمح للمسوفيين ثم القادمين اللاحقين من البربر بإنجاب الأطفال في علاقات الأحرار والعبيد (مثلًا تحدّث المقري عن استولاد أبناءِ المقّري للأولاد من الإماء في ولاتة)[٣]، وهو النموذج الذي أشار إليه أحد أهمّ دارسي ولاتة المعاصرين، تيموثي كليفلاند، الذي قارب هذا النوع من العلاقات التي يحتفِظُ فيها الأطفال المولّدون بقيمتهم في المجتمع[٤]. ولعلّ هذا ما جعل الفئات المسحوقة ترتقي بعد المزاوجة والتسري وذلك من خلال الحيّز السلطوي والتوسُّطي للمرأة.

وبغض النظر عن الأصول الثقافية العرقية أو التجارية للنظام الجنوسي في ولاتة، فإن كثيرًا من نسائها -وبعضهن كنّ أصلًا مستعبدات- قد وجدن فرصًا نسبية في التحرّر وأصبحن جزءًا من المجال العام وصاحبات أمرهِنّ. ومقارنة ببعضِ المجتمعات الشمالية لم تكن نساء ولاتة البيضانيات يحتجِبْنَ عن الرجال، بل كنّ علىٰ علاقات صداقة معهم يقبلها المجتمع ولا يستنكرها، وهو ما أثار حفيظة ابن بطوطة، الناشئ في مجتمع طنجة الأكثر محافظة حينئذ، فسارع إلىٰ الجزم بضعف الولاتيين وعدم غيرتهم علىٰ نسائهم. وكتب مستنكِرًا: «وذلك شيء

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ١٤٦.
(٢) ابن بطوطة،ج ٢ ص ٢٣٤.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج ٥ ص ٢٠٥.
(٤) ابن بطوطة، ج٢ ص ٢٣٣-٢٣٤؛

Cleaveland, 39-38;

ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار المليبار من الهنود، أما هؤلاء فهم مسلمون محافظون علىٰ الصلوات وتعلُّم الفقه وحفظ القرآن، أما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن رغم مواظبتهن علىٰ الصلوات. ومن أراد التزوج منهن تزوّج ولكنهن لا يسافرن مع الزوج»[1].

ولعل ما أثار الرحالة، الذي جاب أهمّ مدن العالم في عصره، لم يكن مجرّد انفتاح نساء ولاتة علىٰ الأجانب وعدم احتشامهن عن الرجال؛ وإنّما مصادقتِهّن لهم. فكتب مستغربًا: «والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعه صاحبها فلا ينكر ذلك عليه»[2]. ويوضِحُ ابن بطوطة - مغتاظًا - أن هذه الطبائع لم تتعلّق في ولاتة بمجتمع من المقموعين أو بتقاليد تابِعة وثانوية ينفرد بها الشباب الفساق أو العامة غير المتديِّين، وإنما أن صداقات الرجال والنساء الولاتيين واختلاطهم كانت سنة التواصل في المجتمع الصنهاجي وبالأخصّ بين قضاته وعلمائه:

دخلت يومًا علىٰ القاضي بإيوالاتن بعد إذنه في الدخول، فوجدته عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبكتُ وأردتُ الرجوع، فضحكت مني ولم يدركها الخجل، وقال لي القاضي: لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتي. فعجبتُ من شأنهما، فإنه من الفقهاء والحُجّاج. وأخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته لا أدري أهي هذه أم لا فلم يأذن له[3].

ويحكي هذه الحكاية التي لم يستطع إخفاء غضبه وامتعاضه منها:

دخلت يومًا علىٰ أبي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته، فوجدته قاعدًا علىٰ بساط، وفي وسط داره سرير مظلّل، عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدثان. فقلت له: من هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي.

---

(١) ابن بطوطة، ج ٢ ص ٢٣٤.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

فقلت: ومن الرجل الذي معها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت له: أترضىٰ بهذا وأنت قد سكنت بلادنا، وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا علىٰ خير وأحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم. فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها. واستدعاني في مراتٍ، فلم أجبه[1].

❁ ❁ ❁

وربما لم يقتصِر انفتاح ولاتة علىٰ العلاقات الجنوسية، وإنما طالَ التعايش العرقي والطبقي. وكان من تجلياته وجود طبقة من صايغي الذهب من الصفارين والسكاكين وصناع الجواهر وتجار القوافل من اليهود الذين استثروا -وإن بقوا «مُحتَقَرين»- حسب ما يُخبِرنا زائرٌ للمجال في مطلع القرن السابع عشر[2]. ورغم هذه الدونية، وحتّىٰ الطبقية، إلاّ أن الخلاصة الثقافية و«الانفتاح الولاتي» لم تضمن دومًا تفوُّقًا للمجموعات الصنهاجية، أو حتّىٰ المغاربية. ويُخبِرُنا المقّري عما يبدو من تضعضع الاستثمار المغاربي والأندلسي، وحتّىٰ الصحراوي، في ولاتة بسبب دخول التجار المصريين. ونعلم منه أن المغاربة كانوا يربحون كثيرًا من التجارة مع ولاتة التي كانوا يُقايِضون فيها الذهب بالبضائع الرخيصة، التي لم يغب عنه أثرها الاجتماعي وانعكاساتها علىٰ التصرّفات. ويتضح أن التجار المصريين، القادمين من الخط الشرقي، أتوا بصفقات أفضل، ما سمحَ لهم بإزاحة سابقيهم[3]. ولعلّ هذا ما يشرح التوترات بين السودان والموحِّدين، حماة التجار السجلماسيين[4]. وقد وصَفَ المقّري -بحسٍ اجتماعي- هذه العملية التي لعلّها بدأت في القرن الثالث عشر:

... لأن بلاد الصحراء قبل أن يدخُلها أهل مصر كان يُجلب إليها من المغرب ما لا بالَ له من السلع، فتعاوض عنه بما له بالٌ من الثّمن -أيّ مُدبّر دنيا ضمّ جنبًا أبي حمّو وشمل ثوباه، كان يقول: لولا الشناعة لم أزل

(١) نفسه.

(2) Fernandes, 85.

(٣) المقّري، نفح الطيب، ج ٥ ص ٢٠٦.

(٤) نفسه، ج ٣ ص ١٠٣.

في بلادي تاجرًا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كلّ أمر الدنيا له تَبَع، ومن سواهم يحمل الذهب، ويأتي إليهم بما يضمحلّ عن قريب ويذهب، ومنه ما يُغيّر العوائد، ويجرُّ السفهاء إلىٰ المفاسد-، ولمّا درَجَ هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفِقون مما تركوا لهم، ولم يقوموا بأمرِ التثمير قيامَهم، وصادفوا توالي الفتن، ويسلموا جورَ السلاطين، فلم يزل حالهم في نقصان إلىٰ هذا الزمن[1].

وبطبيعة الحال، فلم يقضِ هذا مباشرة علىٰ التجارة الشمالية. ونعرِفُ من المقّري نفسه أن أبا إسحاق السُّويحِلي، المعروف بالطُوّيجِن (ت ١٣٤٦) -وهو عالم شهير من أهل غرناطة، وابن عائلة وافرة؛ إذ كان أبوه موثِّقًا بغرناطة ثم لاحقًا أمين العطّارين بها- قد ارتحل في وقت متأخر، في النصف الأول من القرن الرابع عشر، إلىٰ تمبكتو، في مالي، التي عدّها المقّري من «عمالة الصّحراء»، وليس من السودان كما سيترسّخ لاحقًا؛ وقد قدِمَ إليها بعد إقامة وحجّة وجيزة في الشرق. ويبدو أنّه وجد حظوة لدىٰ سلطان تمبكتو، فيما لا يُستبعَدُ أن يكون له علاقة تجارية؛ ذلك أنّه أثرىٰ بتمبكتو، التي مات بها[2].

وشبيه بالطُّوَيْجِن ومعاصِرٌ له، وإن كان أكبر منه، نور الدِّين أبو الحسن الأنصاري (ت ١٣٢٤)، الذي كان عالِمًا نحويًا أندلسيًا معدودًا في طبقات النحاة. وقد نزل من الأندلس إلىٰ بلاد التكرور ودرّسَ أهلها القرآن. ورغم أنّه، بعكس الطّوّيجِن، لم يرتبِط، كما يبدو بالبلاط التكروري، إلّا أن مترجِميه، كابن حجر العسقلاني والسيوطي، يذكُرون أنه أثرىٰ من تدريسه القرآن. فلعلّ هذا يوحي بأنه كان يُدرِّسُ للأمراء والأعيان وكِبار التجار. ويبو أنّه انتظَر حتّىٰ حصّل مالًا فهاجر إلىٰ القاهِرة حيث عاد لصفته كعالم نحو. وقد أخذ عنه كبار مثقفي القاهرة أمثال جمال الدِّين الإسنويّ[3]. ولعلّ الأنصاري وأمثاله كان أساسيين في تسويق بلاد التكرور في القاهرة.

---

(١) نفسه، ج ٥ ص ٢٠٦.

(٢) المقّري، نفح الطيب، ج ٢ ص ١٩٤-١٩٥.

(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسىٰ بابي الحلبي وشركاؤه، ١٩٦٥، ج٢، ص١٤٤-١٤٥.

ولعلّ سببًا آخر لاضمحلال أو كساد ولاتة المؤقّت، وهو ازدهار المواقع التجارية المنافسة في السودان وخصوصًا تمبكتو وغاو وكاغو. ورغم أن التجار البربر كانوا كثرًا بها، إلا أن ليون الإفريقي -الذي مرّ بالمجال في القرن السادس عشر- لاحظ أنهم بدأوا في هجرتها منذ عهد السلطان سني علي (١٤٤٦-١٤٩٢)، وأصبحت المملكة «خاملة بالنسبة إلىٰ سائر ممالك السودان»[١]. وسرعان ما تدهورت وضعيتها، بحيث إن أميرها أصبح فقيرًا وأصبحت اللحوم بها نادرة، ولم تعد عمومًا تستخلِب الزوار، ولم تقدِّم انطباعًا جيدًا للإفريقي الذي وصف أهلها بأنهم «في غاية السواد والخسة»، ويعيشون في «بؤس شديد»[٢].

وهكذا دالت مؤقتًا إلىٰ أفول مدينة ابن بطوطة الغنية والوافرة. أما انفتاحها الذي أثار الرحالة الطنجي فسيختفي هو الآخر تدريجيًا بفعل الهجرات العربية اللاحقة من الشمال، وخصوصًا من قبائل المحاجيب الذين أتوا بتقاليد محافظة ومناقضة لكلِّ ما وصفه ابن بطوطة عن نساء ولاتة؛ فكان من عاداتهم «احتجاب نسائهم فلا يخرجن من البيوت ولا يتزوّجْنَ الأجانب [...] ومن ذلك سُمُّوا المحاجيب»[٣].

❁ ❁ ❁

رغم أن السيطرة العسكرية والسياسية كانت لصالح الأرستقراطية العسكرية السودانية، إلا أن إدماج الصنهاجيين الجنوبيين في بلاط ملوك مالي والسونغاي فتح مجالات للضغط بالنسبة إليهم. وقد حدث هذا أساسًا من خلال تفوُّقِهِم في التعليم، فلعِبوا أدوارًا قضائية ودينية ذات أثر في الدولتين السودانيتين المتتابعتَيْن. وربما كان طابعُ التديّن الماندي في هذه الفترة يميلُ إلىٰ تقديس دور رجال الدين وقدرتهم علىٰ إحقاق المصالحة مع الآلهة، دونَ أن نستبعِدَ عامل القدرات الإدارية والقضائية لهم. وهكذا قرّب مانسا موسىٰ (١٣١٢-١٣٣٧) منذ مطلع القرن الرابع عشر العلماء المالكيين ليس فقط من أوساط الصنهاجيين القريبين

(١) الحسن الوزان، ج ٢ ص ١٦١-١٦٢.

(٢) نفسه.

(٣) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ٦٣.

(فقد أشار ابن خلدون إلىٰ «الملثّمين» في بلاطه)، وإنّما من المغرب ومصر والأندلس. وكان في دولته حضور للشعراء والمهندسين كالشاعر الأندلسي أبي إسحاق الساحلي، الطُّويجِن، الذي كان أيضًا معماريًا اصطحبه مانسا موسىٰ معه من حجّته فأشرف له علىٰ بناء مسجد جامع في غاو، فبناه بالطوب المحروق، وبنىٰ له كذلك قصره[١]. وبطبيعة الحال، لم يكن تقريب العلماء والفنيين مجرّد ترف أو كرمٍ وإغداقٍ سلطاني، بل كانت له نفعيته السياسية، وكان ملك مالي يستخدم الإسلامَ جاعلًا منه نظامًا لعبادته، حسب مشاهدة ابن بطوطة.

في بلاط مانسا موسىٰ بلغ مقام العلماء المسوفيين أن صارَ النظامُ ثنائي السلطة؛ إذ كانت الأرستقراطية الحاكمة تضمّ رجال الدين -الذين كانوا غالبًا من هؤلاء المسوفيين والعسكريين- من العائلات الحاكمة. وبطبيعة الحال، فقد امتدّت تشعبات سلطوية لهذه الطبقية المسوفية المتحلقة حول الملك، وامتدّ نفوذها الروحي -طبيعيًا- في المجال البيضاني، ولكنه امتدّ كذلك، وربما أكثر، في عمق بلاد السودان في تمبكتو وجنىٰ وما حولهما. ففي بلدة ديابا مثلًا كان الفقهاء يحتكرون السلطة بشكل قاطع، بحيث إن القاضي كان يتحكّم في كلِّ شيء، ولم يكن حتّىٰ بمقدور الملك دخول المدينة التي سُميّت أيضًا بـ**مدينة الله**[٢]. بل إن السلطة في أمكنة معينة من بلاد السودان كانت بأيدي البربر كما كان الحال في تكدا التي أقام بها ابن بطوطة أيامًا ووجدها تحت إمرة سلطان يدعىٰ إزارا، كما كان يحكم البلدة المجاورة لها رجل من البربر عرفه ابن بطوطة باسم التكركري[٣]. ولعلّ النفوذ السياسي للبربر في السودان عادَ إلىٰ القرن الثاني عشر، حيثُ أشار ابن سعيد المغربي إلىٰ بربر السودان البارزين. وعلىٰ العموم، فإن الدور القضائي والإداري للعلماء، ليس من العرب فقط بل ومن السونينكي المتصادقين معهم، سيستمرّ في تمبكتو إلىٰ وقت متأخر؛ ففي إبريل عام ١٥٥٢

---

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ٤١٦.

Bovil, 88, 89.

(2) Nehemia Levtzion (2000) "*Islam in the Bilad al-Sudan to 1800*" in The History ofIslam in Africa, 68.

(٣) ابن بطوطة، ج ٢ ص ٢٥٠.

سنرىٰ العالم محمود بن أبي بكر بن بغيع، الذي كان سودانيًا وانغاريًا، يُعين قاضيًا لجنىٰ[١]. وحتىٰ في القرون اللاحقة سيكون هنالك حضور ملحوظ لبعض العناصر من كنتة الشرقيين الذين امتزجوا مع الطوارق وتغلغلوا إلىٰ حوض النهر، وكانوا يشكِّلون جماعات مهمة في تمبكتو رغم أن كثيرين منهم سيخضعون لأويلميدين الطوارق[٢].

رغم أن كثيرين من أفراد هذه المجموعة العلمية كان قادمًا من المجال الصحراوي (بل إن كثيرًا من المعاصرين، كالمقّري، اعتبر شمال مالي من المنطقة الصحراوية) حيث سيلعبون أدوارًا تاريخية إلىٰ القرن العشرين، إلا أنه كانت لكثيرين منهم أصول ضاربة في تمبكتو، وفي بلاد السودان عمومًا، التي كانو ينتسبون لها، كالعالم أحمد بابا التمبكتي (١٥٥٦-١٦٢٧) وغيره. بل إن قبائل من البربر كانت متوطِّدَة في شمال مالي قبل هذا بقرون، وهي قبائل نيتصر ونيتغراس ومدوسة ولمتونة التي ذكرها العمري[٣]. كما كان الفقهاء والأعيان المصريون يسكنون في مالي وفي تمبكتو التي كانت بها قبور تجارهم، كالمصري سراج الدين الكويك، الذي كان من أكبر تجار الإسكندرية، وكالأندلسي عبد الله بن إسحاق السويحلي. وكان الكثير منهم يسكن في مالي، حاضرة المملكة، وكان لهم نفوذ متغلغل في البلاط، كما كان شأن محمد بن الفقيه الذي كان صنهاجيًا من جزولة وكان متزوِّجًا من ابنة عمّ الملك؛ وكما كان شأن شمس الدين بن النقويش المصري وآخرين غيرهم[٤]. ولذا فمن الأجدر أن نفهم أن جماعة الفقهاء كانت في أسِّها نتيجة نمو الحركة التقوية في تمبكتو وتلاقحها مع الحجاز والمغرب وبيضان الصحراء، وهو ما سيبلغ أوجه في صعود أسرة محمد أقيت وسيدي يحيىٰ، القادمين من ولاتة.

---

(١) الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جمال ولد الحسن، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، القاهرة، مصر، ٢٠١٠، ص ٣٨.

(2) Lechatelier, 49-50.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ج ٤ ص ١١٠.

(٤) ابن بطوطة، ج ٢ ص ٢٣٦-٢٣٧.

ولعلّه ما كان للعوائل المسوفية المتنفِّذة في السودان من الاستمرارية وطول الباع والنفوذ ما كان لعائلة أقيت. وقد بدأت تتألّق منذ سطوع نجم أبيها المؤسِّس، محمد أقيت، الذي سرعان ما أصبح تاج الحركة التقوية العلمية بتمبكتو. وسيعقُبه ابنه، الفقيه المتنفذ عمر، الذي نشأ وازدهر بتمبكتو، وخلف أبناءه، «الإخوة الثلاثة»، الذين وصفهم أحمد بابا التمبكتي في **نيل الابتهاج**[1]. ولا يبدو أن ابنه أحمد كان دونه في العلم، فقد كان «فقيهًا نحويًا لغويًا عروضيًا محصِّلًا بارِعًا معتنيًا بتحصيل العلم ونسخِ كُتبه، وكتب بخطِّه عدّة دواوين كثيرة، وجمع كثيرًا من الدواوين والتعليق»، حسب تعبير حفيده[2]. ويبدو أن أسرة محمد أقيت ورثت العلوم ليس فقط من رجالاتِها، وإنما من أصهارِها أيضًا، كما كان حال أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذي أخذ عن خاله الفقيه مختار وعن جده لأمه. كما أنها استفادت من علاقاتِها السَّنَدية والإجازية؛ إذ سافر أحمد بن عمر إلىٰ الشرق واستفادَ من لقاءات مع جلال الدين السيوطي (١٤٤٥-١٥٠٥)، وخالد الأزهري شارح **التوضيح**. وكان قاضيًا بتمبكتو وولاتة[3]. وقد تابع ابنه، أحمد (ت. ح. ١٥٨٣) مسارَه، فقام برحلة أخرىٰ إلىٰ المشرق قابلَ فيها «الناصر اللقاني والشريف يوسف الأميوطي، تلميذ السيوطي، وجمال الدين ابن الشيخ زكرياء والشيخ التاجوري والأجهري» وغيرهم[4]. وكانت هذه العائلة مسوفية (وإن أخطأ بعض الدارسين الغربيين في الاعتقاد أنها جداليّة؛ لأن اسم أحد أجدادها جدّال)، وقد انتكست مرّةً عندما قضىٰ أحمد بابا التمبكتي سنوات من الأسر في مراكش، ولكنها ستتحوّل إلىٰ مشكاة للطبقة العلمية الصحراوية.

ولم تسلم عائلة أقيت من القلاقل السياسية في مملكة السونغاي، التي شهدت بدءًا من أواخر القرن الخامس عشر صراعات عوائلية قوية. وقد أسفرت هذه

---

(١) أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية، ط١، ١٩٨٩، ج١ ص ١٣٧.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) نفسه، ص ١٤١.

القلاقل والتحالفات الخاسرة التي انتهجتها العائلة، وعلماء الخلاصة العربية-الصنهاجية عمومًا، عن طردها أو طردِهم أحيانًا من تمبكتو. ورغم أن الكثير من علماء صنهاجة، الذين طُرِدوا في سنوات القلاقل هذه، عادوا إلىٰ المجال الصنهاجي كعبد الله بن أقيت الذي غادر إلىٰ تازخت وأحمد أقيت الذي غادر إلىٰ بلاد الهوسا ثم عاد إلىٰ ولاتة؛ إلا أن بقيتهم ظلّت لوقتٍ قوية في تمبكتو خصوصًا أن عائلة أند أغ محمد العلمية قد بدأت تتراجع سياسيًا لصالح عائلة محمد أقيت، الذين صاهروهم واستفادوا من علاقاتهم العامة. وقد كان في ظلّ هذا السياق أصلًا أن أصبح محمود بن عمر أقيت الزعيم الديني ورجل تمبكتو القوي[١]. وقد حافظ علىٰ هذه السلطة الدينية في عقبه. ونتيجة لهذا استفردت العائلة لوقتٍ بالنفوذ الفقهي. وقد عمل محمد أقيت وسيطًا بين الأبناء المتحاربين من خلفاء الأسكيا، إلاّ أن هذه الصراعات استدخَلت أبناءه كما حدثَ عندما شبّ صراع بين أسكيا داوود المتوفىٰ عام ١٥٨٢ مع القاضي العاقب ابن عمر، الذي فرض علىٰ ملك السونغاي أن يعتذر ويستجدي الاعتذار عند بابه.

وربما لم يبدأ نظام الثنائية في التضعضع بين رجال الدين والسياسة ويدخل في أزمة، إلا عندما ظهر سني علي (١٤٦٨-١٤٩٢) الذي اصطدم بعلماء مسوفة، وربما بالطبقة العلمية عمومًا، ونجمت من نواياه الاستفرادية بالسلطة أزمة مع علماء ولاتة. وقد بقي في أذهان الفقهاء، الذين كتبوا التاريخ، أن سني علي كان خارجيًا[٢]، وأنه نكّلَ بالعلماء الصنهاجيين لأسباب مذهبية محضة[٣] تتعلّق بميوله

---

(١) فتح الشكور، ص ٤٥.

(٢) انظر مثلًا: البرتلي، فتح الشكور، ص ٤٩.

انظر أيضًا:

Elias N. Saad, *A Social History of Timbuktu: the Role of Muslim Scholars and Notables 1400-1900*. Cambridge: Cambridge University Press, 2010, 41.

(٣) انظر مثلًا: فتح الشكور، ص ٤٩.

أيضًا يوجد تشبيه شبيه في المقاربة الحديثة Tiaud، وتيمنغهام Timingham الذي اعتقد أن سني علي تحالف مع القوىٰ الفلاحية والقروية التي كانت وثنية وكانت ضد القوىٰ المسلمة التي ستقف لاحقا مع أسكيًا محمد. انظر:

Elias Saad, 42.

الخارجية؛ وهي تهم ظهرت في كتابات جلال الدين السيوطي (١٤٤٥-١٥٠٥) وفي رسالة محمد بن عبد الكريم المغيلي (١٤٧٥-١٥٠٤)، المرتبطَيْنِ بعلاقات مهمة مع السلطة والمجتمع السونغاي. ولكن الحقيقة أن تسيُّسَ العلماء ودخولهم في صراعات البلاط وحرصهم علىٰ الحفاظ علىٰ مكاسبهم وَضَعَهُم في صراع مع قائد عسكري كان يرغب في جمع كلّ الامتيازات في يده؛ فردّ بالتنكيل بهم وقتل بعضهم واحتجزَ أشرافهم أمثال سيدي عبد القاسم التواتي ومحمد وأحمد ابني أقيت وغيرهم[١].

وربما كان سبب هذا التنكيل سوء الرهانات السياسية لعلماء صنهاجة وانعكاس ذلك عليهم في سياسة تمبكتو، فقد راهنوا علىٰ الأطراف المتصارعة لرفع نفوذِهم كما فعلوا عندما تحالفوا مع الأسكيا محمد (١٤٩٣-١٥٢٨) الذي أطاح بابن سني علي، أبي بكر داعو. وكجزء من الانقلاب أعاد الأسكيا العلاقة مع العلماء إلىٰ سابق عهدها وتحالف مع السيوطي والمغيلي والبيضان. وربما في إطار هذا الإخصاب ظهرت لاحقًا شريحة جديدة من العلماء وهي الشرفاء، القادمون من المجال المغربي (ولكن ولاتة امتصتهم وأصبحوا صحراويين لدىٰ توافدهم عليها). وقد عنىٰ انتصار الفقهاء المؤقّت عودة النظام القديم، المُرسِّمِ لتقاسم السلطة بين الفقهاء والأسكياهات وتمّ فيه تخصيص الفقهاء بالقضاء. ففي عام ١٤٩٨ قام الأسكيا بمأسسة منصب القاضي عندما عيّن محمد بن عمر بن محمد أَقيت قاضيًا، وأصبح أبناء هذا يخلفونه حتىٰ نهاية القرن السادس عشر.

إلاّ أن حظَّ علماء تمبكتو العاثر سرعان ما عاد لهم بسبب تحالفهم مع الطبقة التجارية المتمخِّضة من ازدهار ولاتة ومالي والسونغاي، التي بدأوا يشكِّلون معها طبقة واحدة. وعندما لقي هؤلاء مشاكل مع السلطة بعد وفاة أسكيا داوود في عام ١٥٨٢، وحّدوا جهودهم مع زعيم الطوارق وتجار تمبكتو وقاموا بتمويل تمرّد مسلح. وكان هذا كارثة للتحالف العلمي-التجاري، فقد فشلوا وأُعدِمَ زعيم الطوارق. وفي المقابل ردّ الأسكيا المنتصر باضطهادهم. وعلىٰ العموم، فقد هدّدت هذه الخلافات بلاد التكرور ووئام العلاقات التجارية والمجموعات

(١) نفسه، ص ٤٤.

الصنهاجية التجارية والمتعلمة. ولقد بدأت الحواضر السونغاوية في طرد هذه الطبقة المزعجة للبلاط في عهد الأسكيا داوود نفسه الذي هاجم المحاربين العرب وطردهم حتىٰ لجأوا إلىٰ ولاتة في عام ١٥٨٣-١٥٨٤ كما تُخبِرُنا حودِاثُ السنين البيضانية[١].

❁ ❁ ❁

مع القرن الخامس عشر بدأت نواة جديدة تظهر في مجال بلاد التكرور، هي الطوارق من أويلميدن بتادْمكّة، الذين نجحوا في بسط نفوذهم علىٰ نواحٍ من شرق الصحراء وألحقوا بعضًا من الكنتيين الشرقيين في مجالهم وإن تحالفوا مع القبيلة الكبيرة. ومع نهاية القرن الرابع عشر بدأوا يتحوّلون إلىٰ سلطة مقاتلة متوسِّعة بدأت تستهدف بلاد السونغاي وماسينا. وفي عام **١٤٣٣** نجح قائدهم خليل أغ مالاحد في السيطرة علىٰ تمبكتو، التي عهد بها إلىٰ أحد حلفائه من الصنهاجيين من آدرار. ورغم أن السلطة في السونغاي استعادت شيئًا من هيبتها، إلا أن العهد الذهبي لم يعد كسابقه[٢].

مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر كانت قوة السونغاي العسكرية قد ضعفت مقارنة بالممالك الكبيرة، وبالأخصِّ بالسعديين في المغرب، الطامعين في الذهب السوداني؛ وضعفت قدرة المملكة السودانية علىٰ الدفاع عن ثرواتها المهمة. وسرعان ما شرع السعديون في حملة استعمار كبيرة للسودان، عُرِفت بالغزو السعدي الذي تمثّلَ في حملة القائد جودر في تمبكتو، الذي اجتاح المجال بجيش مزوّد بأسلحة نارية، وهو ما عرفه البيضان بـ**الرماة**[٣]. كان نفوذ البيضان قد انحسر جدًا في تلك الأوقات من بلاط الممالك السودانية، ولكن كثيرًا منهم كان ما يزال مرتبطًا بالوضع السياسي فيها. ولذا عارض كثيرٌ منهم

---

(١) المختار بن حامد، حوادث السنين، تقديم وتحقيق سيدي أحمد بن أحمد سالم، دار الكتب الوطني، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠١١، ص ٣٨-٣٩.

(2) Lechatelier, 50-51.

(٣) المختار بن حامد، حوادث السنين، ص ٤٠-٤١.

الغزو السعدي واضطرّوا -بربرًا وسونغايًا- إلىٰ الهجرة عن السونغاي إلىٰ ولاتة في عام ١٥٩١[١].

❁ ❁ ❁

في الشمال البيضاني لم تكن وضعية البيضان السياسية أحسن حالًا كثيرًا. فقد كانت السنوات اللاحقة للعهد المرابطي والسابقة لظهور الإمارات الكبيرة سنواتٍ خالية من سلطات كبيرة في الصحراء، وبالأخصِّ في تخومِها مع السودان. وفي المقابل كان توسّع القبائل السودانية، وخصوصًا الولفية والبولارية، في جنوب موريتانيا ملحوظًا. فقد وصل نفوذهم إلىٰ شمامة، في غرب جنوب موريتانيا، من خلال تاغللة أو تنغلّة، البولار، الذين عرفهم اليدالي بآل تنكَل، المنسوبين إلىٰ تنغلّة Tenguella (١٤٩٠-١٥١٢) وابنه كولي تنغلّة Koli Tengella (١٥١٢-١٥٣٧)، والذين طالَ نفوذهم جزءًا كبيرًا من الترارزة ولبراكنة وظلّوا يفرضون الجبايات علىٰ تشمشة حتىٰ القرن السابع عشر، «وكانوا يغيرون علىٰ الزوايا حينئذ ويأسرون ذراريهم ونساءهم»، كما تُخبِرُ المصادِر البيضانية[٢]. وربما عاد هذا النفوذ إلىٰ التوسُّع الذي قام به ماري نغنون سوبل Amari Ngone Sobel الولفي الذي حكم في الفترة (١٥٤٩-١٥٩٣) بصفته أوّلَ **دامل** أو ملك لكايور، الذي يقال إنه أقصىٰ البيضان إلىٰ منتصف المسافة إلىٰ المغرب[٣]. وهو أمر تؤكِّدُه المصادر الفرنسية في القرن السابع عشر التي تكرّس عندها أن البيضان بقَوْا لفترة تحت سيطرة السودان في شمال النهر، وأنهم كان يدفعون لهم ضرائب سنوية[٤]. ويذكر والد بن خالنا (ت ١٧٩٨) بعضًا من أسياد تشمشة الذين قتلهم «**الفلان**» (البولار) أمثال أحمد بن أحمد بلب، ورجل يدعىٰ شورود وصفه بأنه كان «بطلًا لا يُقام له»[٥]. ولا شكّ أن هؤلاء كانوا يتحدّثون عن تأثير غزوات مملكة الفُلاّن، إضافة إلىٰ

---

(1) Cleaveland, *Becoming Walata*, 55.

(٢) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ١٠٣-١٠٦.

(3) Webb, Desert, 29.

(4) Antoine Edme Pruneau de Pommegorge ،*Description de La Nigritie*. Amstrdam, 1789., 8.

(٥) والد بن خالنا، ورقة غير معنونة عن أنساب أولاد ديمان ومن لحق بهم، نسخة أحمد سالم ولد باكَاه، مخطوط، ص ٣٣، ٤٨.

كايور، المستقلّة عن الأخيرة، التي كانت كلّها في فتراتٍ علىٰ احتكاك مع البيضان وفي علاقة مدٍّ وجزر عسكري معهم.

أما في الجنوب الشرقي، فإن قوات الولوف ستتمدّد مائة كيلومتر في بلاد الغنار (أو بلاد الزنوج البيضان في مناطق بحيرة اركيز وتكَماطين وإكَيد)، بينما سيصل السونينكي إلىٰ ٢٥٠ كيلومترًا في تگانت[١]، متجاوزين مجالهم ونفوذهم الحدودي في ولاتة. أما الروايات الفلانية فتتحدّثُ عن وصول لهم إلىٰ آدرار وتيريس. وتعترف الروايات الشفوية البيضانية بحضور قوي في الترارزة وتگانت، التي أسمتها التقاليد البولارية بـ «**جيري فوتا**». كما أن التحليل الألسني أثبت حضورًا سودانيًا مهمًا في نصف موريتانيا الجنوبي[٢]. وواضح من التقاليد السونينكية (السارغولىٰ) أن مجموعاتهم المعروفة بـ **الغانغارا** توطّدَتْ في تگانت والعصابة وبَنَت بها قرىٰ فلاحية عديدة منها: والو، ديابو، بابو، نغيوكو ونيجديد[٣]. ويتّضِح من خلال روايات مؤرِّخ تگانت، سيدي ولد الزين، حضور السودان في مجال تگانت عندما هبط إليه البيضان من كنتة وإديوَعلي في القرن السابع عشر.

---

(1) George Poulet, *Les maures de l'Afrique occidentale française*. Paris: Libraiarie Marime et Coloniale, 1904, 4; Lechatelier, 80.

اعتبر لشاتلبير أنهم وصلوا إلىٰ مشارف آدرار، ولكنه اعتبر أنهم تكرور وإن كان يعترف بأنهم ماندي.

(2) Webb, *Desert Frontier*, 17

(3) Paul Marty. *L'Emirat des Trarzas*. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 2

- ١١ -

مدن وتجارة واختلاط (ق١٣-ق١٧م)

«إنها مدن كبيرة جدًا ومبنية بشكل جميل، ويسكنها البيضان الأغنياء الذين يتوفّرون علىٰ كل أنواع المواشي والشعير والتمر، وثمّة الكثير من الذهب الذي يوجد في الأراضي القريبة من النهر»

مليشوار بتوني

تنظرُ الروايات والتقديمات المختلفة عادة إلىٰ الصحراء فيما بعد المرابطين كما لو أنها خرجت من التاريخ العالمي. ويحمل هذا التشخيص، غير الدّقيق تمامًا، معه انطباعات عن تدهورها وانحطاطها بعد بزوغِها وتصدُّرِها. إلاّ أن الواقع أنّ العهد ما بعد المرابطي في الصحراء تميّز بازدهار الثقافة الأهلية التي لم تحتج لدولة كبيرة تحميها أو تتغذّىٰ عليها. ويمكننا القول، بناءً علىٰ المعطيات التي عندنا، إن الحياة التجارية، بما يترتّبُ عنها من إخصاب وتعدّد ثقافي لم تنقطع، بل وازدهرت بجلاء. وبحسب الشواهد والتواريخ الشفاهية وتواريخ الأصول القبلية والمدنية، فإن القرن الثالث عشر شهد بزوغ المراكز التجارية الصغيرة والمستقرة التي ستعرف بالقصور أو **لكَصور** والتي ستكون لها علاقات ممتدّة مع السواحل ومع المغرب والسودان. كانت بعض القبائل الصحراوية التي نشأت في المجال أو تدفّقت إليه قبائلَ مستقرة قضت الفترة المرابطية في المدن المستقرة في توات وفاس والسوس وسجلماسة (تافيلالت) جنوب المغرب والجزائر وغيرها؛ وعندما نزلت إلىٰ الجنوب، فيما بعد العصر المرابطي، ربما في إطار استثمارات تجارية وربما هربًا من مضايقات الهلاليين لها، فإنها قصدت أو أسّست التجمعات

شبه المدنية التي كان بعضها موجودًا في الصحراء بفعل المجتمع المستقر الذي نشأ من السكن القار لبعض المجموعات المزارِعة والمتاجِرة، ومن الاختلاط الطويل بين سكان الواحات من البافور والبربر اللاحقين والعناصر العربية التي استقرّت في الوسط في تيريس وآدرار. وكانت المجالس العلمية، وخصوصًا في الجنوب الولاتي، قد نتجت من تلاحم حركة مجتمعية تعبدية وعلمية مستقرّة معتمدة علىٰ تربية المواشي والتجارة. وقد أعطت الهجرات الصغيرة دفعًا لمجتمع **الكَصور** خصوصًا أن النازحين كانوا يرتبطون في أحيان كثيرة بعلاقات قرابة[١].

علىٰ مرِّ التواريخ أسّس المقيمون والنازحون سلسلةَ مدن صغيرة علىٰ نمط مدن وبلدات البربر الصغيرة والقديمة التي وجدت علىٰ طرق القوافل، مشكِّلينَها علىٰ أنها استراحات قوافلية ومحطات للتبادل التجاري. ستُعرَفُ هذه الأنماط القروية المدنية عبر التاريخ بعدّة أسماء: «**تاكَرارت**»، «**أغادير**»، «**قصر**» .. إلخ. وتتضح في هذه التّسميات العين الناظِرة والمسافرة للبربر ثم للعرب. ورغم أن معظم هذه المدن كانت مكشوفة و«غير محصّنَة» كما لاحظ زائر للمجال في منتصف القرن الخامس عشر[٢]، إلا أن بعضها كان يحوي عناصر عسكرية مميّزة كما كان حال أزوكَي في آدرار مثلًا التي تأسّست حول حصن عسكري وكانت بها غالبًا مساحة محمية للقطعان[٣]، ربما ترجمة لملكية جماعية. ويتضح من هذا أن بعضَ هذه المدن والبلدات، ذات الأصول الصنهاجية والمرابطية غالبًا، قامت علىٰ نموذج المحلات أو المعسكرات الصنهاجية التي كانت أيضًا نموذجًا بلديًا مُعسكَرًا عرفت في اللغة الصنهاجية باسم «**تاكَرارات**» (المحلّة)، وهو أيضًا اسم مدينة اختطها يوسف بن تاشفين في تلمسان[٤]. أما الاسم الذي سيدوم ويبقىٰ لهذه المدن فكان

---

(١) فمثلًا كان أسلاف إيديقيب وإيدولحاج والمحاجيب مرتبطين نسبيًا قبل تدفقهم إلىٰ الصحراء (Whitecomb, 1, 105)، كما أن قبائل إيدولحاج وإيديقب ولوتيدات وإيدوبجة تكونت من سكان ودان وتنيي الأوائل، حسب المختار بن حامد.

(2) Ca'da Mosto, 47.

(3) Abdel Wedoud Ould Cheikh and Bernard Saison. Vie(s) et mort(s) de al-Imam al-Hadrami: "Auteur de la posterité saharienne du movement al Moravide (11^{e}-17^{e} s). Arabica, T. 34, Fasc. 1(Mars., 1987) p.p. 84-79. Brill., p. 52-53.

(٤) الناصري، ج ٢ ص ٢٩-٣٠.

القصور، أو **لكَصور** في النطق الحساني. وبغضِّ النظر عن أصل بعضها، إلّا أن أساسها التعدُّدي كان واضحًا؛ وكانت علىٰ العموم نمطًا أهليًا ثقافيًا يمتدُّ من توات وتلمسان حتىٰ السودان، وكانت حركةُ المجموعات- التي خبرت السكن في التجمعات والحواضر الأهلية، والتي كانت مثلًا مزدهرة في توات (وقد اشتهر من هذه القصور: قصور تمنطيط وقصر أولاد الحاج وقصر بودة والقصور الكنتية المزدهرة التي سكنتها قبيلة كنتة وأولاد سيدي حمو بلحاج غيرها)[1]- مفتوحةً بين هذه المجالات.

إذا اعتمدنا توصيفًا جوهرانيًا وكونيًا معاصرًا للمدن، فإن **الكَصور** لم تكن مدنًا صرفة؛ إذ لم تقُم فيها القطيعة مع الحياة البدوية ومع الاعتماد علىٰ تربية المواشي. ولكن البداوة خارجها كانت أكثر قطعية، وكانت حياة الترحال الدائم والغزو سائدةً هنالك بما يصنع تمييزًا وفرقًا. وفي القرن السادس عشر كانت الصورة التي نقلها لويس مارمول كربخال (١٥٢٠-١٦٠٠) عن سكان الصحراء قاسيةً، فقد قال إنهم «خَشِنون جدًا» وإنهم «أقرب إلىٰ الحيوان منهم للإنسان»[2]! ولكن رغم خشونة حياة الصحراء، إلا أن صورة الحياة فيها لم تكن موحّدَة، كما أن حظوظ المجموعات فيها كانت متفاوتة. وبطبيعة الحال، فإن الحياة فيها كانت جهيدة وكانت بالفعل مسرحًا لصراع مستديم. وهو ما اضطرّ المجموعات أن تعيش علىٰ حساب بعضها الآخر. ولم تندر من بينها المجاعات والتقاتل. وفي أحيان معينة اضطرّ سكان الصحراء إلىٰ أكل بعضهم، كما أخبرنا أحد زوار المجال[3]. ونعرِف من المصادر اللاحقة أنهم، في أوقاتٍ معيّنة، اتخّذوا من الجيفة والحمير أطعمة. وعلىٰ العموم، فقد كان الغزو والحماية معيارًا لكسب المجتمعات المحاربة. فنعرِفُ من التواريخ التي وصلتنا أن الجماعات اللمتونية

---

(١) محمد الصالح حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي): دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٧، ج١ ص ٢٨-٣٦.

(٢) مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي ورفاقه، دار المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٤، ج ١ ص ٤٨.

(3) Fernandes, 83.

المحارِبة كانت ما تزال تحقِّقُ عوائد من سيوفها. وفي القرن الثالث عشر كانت هجماتها من أجل السلب والنهب شائعة، بل إن هجمات القبائل المسلحة الخاطفة كادت تفني سكان قمنورية، حسب الإدريسي. كما أن الزغاوة كانوا يشنّون غزوات ضارية ولكن بعيدة؛ إذ كانوا يسكنون في الشرق وكانوا يهاجمون في الغرب[1]. بعيدًا عن ميادين القتال هذه كانت **الكَصور**، المحصنة والثرية نسبيًا، مشروع الصحراء للنجاة من هذا النمط؛ وذلك بسبب ميزتها الأساسية: التحصّن والعدّة والتجارة والتعليم. وبمعنىٰ ما، فإنها كانت مشروعًا لإنقاذ شعب الصحراء من الضياع.

❁ ❁ ❁

في هذه المدن الصغيرة، تمامًا كما في غير المدن، لم يكن التنظيم الاجتماعي مؤسّسًا صرفًا علىٰ النقاء القبلي الصرف كما تزعم أيديولوجيا القبائل، فالواقِع أن معظم القبائل تكوّنت من أواصر الامتزاج والاختلاط، ولم تحقِّق هوية قبلية واحدة إلا بفعل أواصر الاقتصاد المشترك والتصاهر والتحالفات السياسية التي دعمها تاريخ طويل من التعايش والتناسب وتغيير الأنساب وإعادة تأويلها والانخراط في متخيل أبوي واحد يشكِّلُ عصبية أو تلاحمًا وحَمية: نوع من القومية البدوية ما قبل الحداثية.

حسب تواريخ القبائل وسرديات التأسيس، ولكن أيضًا بحسب معطيات تأريخية أخرىٰ، فإن فترة القرنين الثاني عشر والخامس عشر شهدت ظهور عدة مجموعات، بعضُها ظهر في أصول محلية وبعضُها قدِم من شمال منطقة الصحراء في جنوب المغرب وغرب الجزائر، الحاليتَيْن. وقد ضمّت الكثير ممن سيكونون من التشمشيين إلىٰ المحاجيب والعلويين والشرفاء والمحلات الغازية. وقد وجدت كل هذه الهجرات نفسها في نظام صحراوي مبني علىٰ التحالفات التي انبنت بدورها علىٰ علاقات نَسَبية، وانبنىٰ الشرف فيها علىٰ الأصول والتسلسل

(١) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تصحيح هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، الجزائر، ١٩٥٧، ص ١٦-١٧.

العائلي. وما لبثت الأنساب وصناعتها أن أصبحت أيديولوجيا الصحراء، ووجدت مجموعات البربر وصنهاجة لنفسها أصولًا عربية جديدة. تمّت هذه العملية في مسارات معقدة. وفي أحيان كثيرة كانت ترجمة لنوع من الامتصاص الاجتماعي الذي حدث في داخل **الكَصور** لكثير من العناصر المهاجرة[١].

لم يتوقف النازحون عند إعمار **الكَصور** التي كانت قائمة، بل قاموا ببناء أخرىٰ أو إعادة بنائها، وأحيانًا إعادة بنائها نسَبيًا، إن لم يكن اجتماعيًا. ويبدو أن بناء المدن أو إعمارها حدث في إطار تراتبي وثقافي إنتاجي واضح، حيث تتضح سرديات تقسيم وأصول العمل والوظائف العشائرية في الفولكلور والروايات الشفهية عن بناء معظم **الكَصور** التي ستصبح نواة أساسية لمجتمع البيضان الجديد الذي أعقب العهد المرابطي الثاني.

❁ ❁ ❁

ويبدو أن مدينة أزوكَي كانت أولىٰ المدن الصنهاجية الوسيطة المعروفة لنا، إذا استثنينيا مدينة بانكلاين، التي ذكر البكري أنها كانت مسكنًا لبني وارث الصنهاجيين، ولا نعرف عنها غير ذلك، أو مدينة ولاتة، الأبعد علىٰ الجنوب، التي دالت بعد فترة إلىٰ المسوفيين. لقد تحدّثنا سابقًا بإسهابٍ عن ولاتة. أما أزوكَي فيبدو أنها بُنيت أولًا في إطارِ التحوّلات الاجتماعية التي أتت بها حركة المرابطين. ويتضح أنها شُيِّدت أولًا لأغراض عسكرية؛ إذ كانت حصنًا أقامه يانو بن عمر الحاج، أخو يحيىٰ بن عمر. وقد اكتمل بناؤه في وسط واحة مليئة بالنخل، والذي قيل إنه بلغ عشرين ألف نخلة في القرن الحادي عشر[٢]. ولعلّ

(١) عن تحليل الأنظمة النسبية والقرابية ودورها في عقلنة وتطبيع علاقات القوىٰ انظر أعمال بيير بورديو:

Pierre Bourdieu, Esquisse d'une théorie de la practique (Dorz: geneve, 1972); Pierre Bourdieu, Sociologie de l'Algerie (PUF, 1961).

وعن مقابة أنجع لنظام الأنساب في الصحراء انظر أعمال بيير بونت وعبد الودود ولد الشيخ:

Pierre Bonte, Récits d'origine: contribution à la connaissance du passé ouest-saharien (Mauritanie, Maroc, Sahara occidental, Algerie et Mali) *(Paris: Karthala, 2016).*

Abdel Wedoud Ould Cheikh, Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la societé maure précoloniale (XI eme siècle -XIX eme siècle): essai sur quelques aspects du tribalism.

(٢) البكري، ص ١٦٧.

تمركزها هذا في الروضة التموريّة عكس قابليتَها لاستقطاب السكان وجعلها رأسًا علىٰ علم. فقد ظلت حيّة في الإشارات العربية إليها في عموم فترة القرنين الحادي عشر والخامس عشر، ونُخمِّنُ أنها كانت مركزًا آوت إليه «طبقة وسطىٰ» مدنية، وأنّها بفعل هذا قد تكون شهدت أنشطة علمية وإدارية عندما هاجر إليها وأقام بها ودُفِن الإمام أبو بكر المرادي الحضرمي (ت ١٠٩٥)، الذي شغل بها منصب القضاء.

ولا شكّ أن ازدهارها كان ترجمة لغناها الذي يدلُّ عليه التحاقها بالطريق القوافلي وبالسلسلة التجارية. وفي غياب الآثار الكتابية المفصلة في هذه الفترة، فإن الكشف الحفري يحيل إلىٰ وجود حياة متنامية علىٰ مراحل، ما يعني أنّها نمت باطراد. ورغم أن البناء الصخري الوحيد بها ظلّ الحصن العسكري وما يتعلّقُ به من أبنية، إلا أنه من غير المستبعد أن مساكن من مواد فانية قد ازدهرت حول الحصن، خصوصًا أن آبارًا وأدوات حديدية وأسلحة وجدت في أحواز القرية الصغيرة[١]. وما نعرفه عن فترة انتعاش أزوكي في العهد المرابطي، هو أن عبد الله بن ياسين أقام دولة الشريعة الإسلامية؛ ولذا فإن القضاء أصبح أهمَّ آلية لتسيير الشأن العام، وربما بفعل وجود الإمام الحضرمي، القاضي المُستقدَم من جنوب المغرب وقبل ذلك من الأندلس، أصبحت المدينة حاضرة دينية، وإن كان حصنها يوحي بأنها قد شهدت أيضًا تقسيم عمل مع نواة محاربة، وربما حاكِمة. ويبدو أن هذا التقسيم، أو علىٰ الأقل جانبه المُحارِب، استدامَ لفترة، ولم يكن فقط وضعًا طارئًا؛ إذْ نعرِفُ من زوار المدينة في وقتٍ متأخِّر من أواخر القرن السادس عشر -حيثُ ظلّت أزوكّي باقية- أنّ حامية عسكرية كانت مقيمة بها[٢].

❁ ❁ ❁

(1) Abdel Wedoud Ould Cheikh and Bernard Saison. Vie(s) et Mort(s) de al-Imam al-Hadrami: "autheur de la posterité saharienne du mouvement almoravide (11e-17e s.") Arabica. T. 34, Fasc. 1, 1987, pp. 48-79. (p.75-79).

(2) A Relation Concerning the estate of the Island and Castle of Arguin and Touching on the Richard Secret Trade from the Island of Africa thither, written in the year 1491". A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, Collected by Richard Haklvyt London: George Bishop, Ralph Newberie, and Robert Barker, 1600, vol 3, 1.

وربما كان تقسيم العمل هذا بين مجموعات عسكرية وأخرىٰ مدنية (وإن كان من غير المحتمل أن هذا الفصل كان جذريًا)، ربما يعود إلىٰ أول مدينة بيضانية، حسب الفولكلور، وهي آبَيْرْ التي أسستها المجموعات نفسها التي أسّست أو ساهمت في تأسيس شنقيطي، وهي إيدوعلي، الذين قدِم بعضُهم من تابلبالت وتوات، والذين -يبدو من الأساطير القائمة- أنهم امتزجوا فيها مع محلات عسكرية. ولسبب ما غادرت المحلات القرية[١]، ربما بسبب مضايقة إيدوعلي لهم (إذ تقولُ لنا الروايات التأسيسية لشنقيطي إن النواة الأولىٰ إيدوعلي كانت من المحارِبين). وعلىٰ العموم، فإن مدينة آبَيْرْ لم تحظَ بدراسات كافيّة في التأريخ الموريتاني المعاصر. ويبدو أن أغلب المؤرِّخين يميل إلىٰ خلطِها مع مدينة شنقيطي باعتبارِها إرهاصًا لها أو تخيُّلًا من الأخيرة للأولىٰ. ولكننّا نعرف من وثيقة كتبها مراسِل برتغالي عاين المجال في عام ١٥٩١ أنّها كانت مدينة واقِعة بالفعل، وكانت جميلة ومستقلّة عن شنقيطي[٢]. ولا يُوضِح هذا كثيرًا المعلومات الفلكلورية بأنها كانت مسرحَ خلافات أدّت إلىٰ هجرتِها وإنشاء شنقيطي؛ ذلك أن الوثيقة البرتغالية المعاصِرة تُحيلُ إلىٰ تعايُشِهما وتجاورهما في منطقة آدرار، المُشارِ إليها بـ**درها** في الوثيقة، والموصوفة فيها بـ«المملكة». لكنّنا نعرِفُ من مصدرٍ أوروبي معاصر آخر -هو المسافِر المستكشف فرنادس، الزائر للمجال في عصر ازدهار كَصوره- أن السبب المباشر في النزوح منها كان بيئيًا ويتعلّق بسيلٍ أو فيضانٍ جارف[٣]. وفي بداية القرن السابع عشر وقف هذا الشاهد علىٰ أطلال آبير المتهدِّمَة. كانت آنذاك مجرد مدينة مهجورة في أقصىٰ وديان آدرار، وكانت ما

---

(١) سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم، صحيحة النقل في علوية إيدوعلي وبكرية محمد غلي، ص ٥، مخطوط.

(2) A Relation Concerning the estate of the Island and Castle of Arguin and Touching on the Richard Secret Trade from the Island of Africa thither, written in the year 1491". A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, Collected by Richard Haklvyt London: George Bishop, Ralph Newberie, and Robert Barker, 1600, vol 3, London 1810, p. 491.

(3) Fernandes, 79, 81.

تزال متميّزة بـ «الأبنية الكبيرة والقصور»[١]. ويبدو أن اضمحلالها، المتعايش مع شنقيطي، قد فسح المجال للأخيرة في البروز.

❁ ❁ ❁

يتباين تأريخ ظهور شنقيطي بين الدارسين. ففيما تذهب رواية ابن حبت الغلاوي إلىٰ أنها امتداد لآبَّيْرْ، فإن رواية سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي، كما نقلها عنه ابن طوير الجنة، ترىٰ أنها لم تُبنَ قبل القرن الرابع عشر. فنحن إذن أمام سرديّتَيْن: إحداهما تجعلُها أوّلَ المدن التاريخية الموريتانية، والأخرىٰ تجعلُها آخر المدن الكلاسيكيّة بناءً. وقد ذهب بعضُ الدّارسين الحديثين إلىٰ أنّها بُنِيَت في الفترة ١٢٦١-١٢٦٢، إلاّ أنها لم تصبح معلمًا لافتًا قبل قرابة قرنين لاحقَيْنِ وتحديدًا في عام ١٤٣٣[٢]. وربما كانت أهميتها في القرن الخامس عشر تتعلّق بتأسيس جديد، فلم يعد اسمها آبَّيْرْ (علىٰ افتراض أنها كانت امتدادًا لآبَّيْرْ أو هي نفسها، بحسب بعض التقاليد، وخصوصًا الغلاوية) بل شنقيطي. ولكن أول إحالة كِتابية لها لن ترِدَ قبل ١٥٠٦-١٥٠٧ عندما أشارَ إليها فرنادس. ويبدو أن إشارة أخرىٰ متزامنة أو لاحقة وردت عنها في ١٥٠٦-١٥٠٨ عندما أشار إليها دورتا باتشكو بريرا Duarta Pacheco Preira في سياق حديثه عن المدن القريبة من ودان[٣]. لا يُحيل الزوار البرتغاليون في القرن السادس عشر إلاّ إلىٰ أنها مكان تجاري صغير. ولكنّها ستتطوّرُ قُدُمًا.

أما الروايات الأهلية، غير المهتمة كثيرًا بالأصول من جهة تأريخها بالسنين أكثر من اهتمامها بالأصول الاجتماعية والعهود والتقسيمات الاجتماعية، فإنّها تُركِّزُ علىٰ العقد الاجتماعي السائد بها، وتُحاول شرعنته بقصص التأسيس. وحسب هذه الروايات الشفهية والمُسجّلة، فإن شنقيطي تأسّست علىٰ يدِ أربعة رجال يبدون مستقلين من الناحية القرابية. إلاّ أن الروايات لا تُساوي بين هؤلاء الرجال، بل تُظهِرُ لنا تباين علاقات القوىٰ بينهم. وما يمكن تلخيصُه منها هو أنها

---

(١) نفسه، ص ٧٩.

(2) Ould Khalifa, 74.

(3) Bonte, "Fortunes commerciales," 1.

تتحدّث عن تحالف بين النواة الأولىٰ لقبيلة إيدوعلي والأغلال ومجموعات اجتماعية دونَهُما في المكانة أو التراتبية. ويُرمز لهذا التحالف عادة بتقاسم العمل المنسوب للآباء المؤسِّسين للقبيلتَيْن؛ إذ يُقال إن يحيىٰ، الذي ينتسب له العلويون، تولّىٰ أمور القيادة والدفاع وإصلاح **الكَرارات** أو النخيل، بينما تولّىٰ محمد غلي، الجد الجامع لقبيلة الأقلال، الصلاة والتدريس؛ فيما تنسب التقاليد لعمر يبني -جد آمكَاريج- العمل في البناء، وتنسب إلىٰ ايديجر العمل في الحدادة[1].

لا تُحيل هذه التقاليد الميثولوجية التأسيسية فقط إلىٰ حياة ماضوية، وإنما كانت تُشرِّع التصورات القائمة وقت تداولها. ولكنّها تُحيل أو تتخيّل صورة ماضية مثيرة. ولعلّها تُشير بشكل واضح إلىٰ تصوُّر اللاحقين لنمط الحياة في المدن الصنهاجية الأولىٰ. ويبدو من هذا أن هذه المدن قامت علىٰ تقسيم العمل، الذي من الأجدىٰ فهمه علىٰ أنه تعاضد أنماط إنتاج فيها. وهو تقسيم أو تعاضد لم ينتظر قدوم المحاربين الحسانيين في القرن الرابع عشر؛ فقد كانت توجد بها أرستقراطية منقسمة بين رجال الدين (الأقلال والسماسيد في شنقيطي) وبين العسكريين (إيدوعلي، حيث تشير هذه الروايات إلىٰ التزامهم بالدفاع والقيادة). بيْدَ أن التقسيم لم يكن صارمًا أو بنيويًا علىٰ أساس قبلي، فقد كان التعليم الديني، وخصوصًا في القرون اللاحقة، سائدًا أيضًا في أعيانِ من وُصِفوا بإيدوعلي، كما من الراجح أن القبائل الأخرىٰ كانت تتوفّر علىٰ حاميتها من رجالاتها. كما أن الطابع العام لحياة المدن وهو التجارة المرتبطة بتربية القطعان، التي كانت تشكِّلُ عملةً ورأس مال، ربما كان يخفِّفُ من هذه التقسيمية.

إذن، حسبَ المحكي تأسّسَتْ المدينة التي سيتمُّ لاحقًا تعميم اسمها علىٰ كل مجال البيضان علىٰ أساس أرستقراطي عسكري دفاعي وعلمي وتجاري. ولم يتوقّف العمل العسكري بها علىٰ مجرد الدفاع، بل يبدو أن الحاميات بها كانت تُغرِّمُ السكان، كما يتضِحُ في صراع الأجنحة القوية في إيدوعلي حول تبعية

(1) Abdallah Ould Khalifa. La Région du Tagant en Mauritanie: l'oasis de Tijigja entre 1660 et 1960. Paris: Edition Kharthala, 1998, 64, 65.

إيصنباتن[١]. قد لاحظ شاهد عيان زار المجال في نهاية القرن السادس عشر أنه كان لكل مدينة كشنقيطي وودان وأزوي وغيرها قائدٌ عسكري وحامية عسكرية[٢]. وربما كان وجود فئات محاربة في **الكَصور** والمدن أمرًا أيسرَ وأكثر تعدّدًا منه فيما بعد التفوق في امتلاك السلاح الناري الذي تيسَر للقبائل الحسانية لاحقًا في أرض الگبلة بفعل سيطرتها علىٰ منافذ الحصول علىٰ السلاح من التجار الأوروبيين. قبل هذا نفترِضُ أن خيار التخصُّص الحرابي كان أكثر ديمقراطية. ولا شكّ أن هذا كان بسبب أن السلاح الأبيض كان السلاح السائد وكان يصعب احتكاره، وإن كان يمكن التفوّق في استخدامه. وقد نقل زائر للبلاد في منتصف القرن الخامس عشر أن تسليح البيضان كان يتألّف من الدروع اللمطية والحراب ذات النصال الحادة إضافة إلىٰ الخيول[٣]. وقد استفادت مجموعات عدة من السلاح البرتغالي المتمثِّل في السيوف الصارمة المهرّبَة من البرتغال، التي كانت تباع في آرغين في القرن الخامس عشر[٤]. وفي القرون اللاحقة للمرابطين كان في البيضان طبقة محاربة تعتمد علىٰ الخيالة الضاربة. وكانت شنقيطي نفسها مركز هذا التفوُّق؛ إذ كانت أساسًا مكانًا لتربية الخيول، وهو النشاط الذي اشتقّتْ منه اسمها الذي كان يعني «**عيون الخيول**» بلغة آزَّيْر، اللغة المنطوقة في مجالات واسعة آنئذ[٥]. وستضمن خيل المدن تفوّق الصحراء العسكري علىٰ الجنوب لقرون طويلة.

في معظم العالم في هذه الفترة كانت السيطرة للخيالة الثقيلة، التي كانت تسحق المشاة خصوصًا إذا كانت خيولها منضبطة وعالية الجودة وإذا توفّرَ فرسانها

---

(1) Ould Khalifa, 80.

(2) A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London 1810, 1.

(3) Ca'da Mosto, 59-60.

(4) Mark Peter and José da Silva Horta. The forgotten diaspora Jewish communities in West Africa and the making of the Atlantic world . Cambridge: Cambridge University Press, 2011, 107-108.

Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries.,19-35

(5) James Webb. The Horse and Slave between the Western Sahara and Senegambia, JAH 34 (1993), 221-246,(224).

علىٰ سروج عالية الجودة تضمن ثبات المحارب وعدم تقلقله من علىٰ الحصان. وهو الأمر الذي وقعَ عليه الإجماع العسكري في المناطق الأبرز عالميًا منذ القرن الثامن[١]. ورغم أن تاريخ الصحراء لم يشهد غالبًا وجودًا للخيالة الثقيلة أو حروب الجيوش الكبيرة جدًا المنتظمة في كراديس الخيالة والمشاة، إلا أن الفارس المقاتل المُسَلّح، صاحب الخيل الجيدة، كان يضمن تفوق البيضان في نمط الحرب الصحراوية والسودانية المتميزة بالإغارات والهجمات الخاطفة أو الالتحام المباشر بين الفِرَق المقاتِلة. وربما من هنا نبعت قيمة شنقيطي الأولىٰ في تأمين الخيول، ولكنها ظلّت غالبًا، وخصوصًا لاحقًا، مدينة متاجرة بالبضائع والأغذية. بل إن سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم (١٧٣٩-١٨١٨) تحدّثَ عن أنها سيّرَت مرّةً قافلة من ٣٢٠٠٠ جمل في شراكة مع ودان[٢]. ولاحقًا ستظهر فيها امتدادات سكانية قبلية ناجمة من -أو متأسِّسَة علىٰ- هذه الإنتاجية التجارية والعلمية، حيث سيظهر العور وإيدابيجة والدخانين أحفادًا وأخلافًا ليحيىٰ العلوي، ومن أعقاب محمد غلي سيظهر أولاد موسىٰ، الذين شكّلوا غالب أغلال شنقيطي، أما أولاد مالك وبني أحمد من الأغلال أيضًا فسيغادرون لاحقًا إلىٰ الحوض في ظلِّ الحركة التجارية وربما الخلافات التي ستطبع المدن الصنهاجية في أوقات معينة. أما بنو موسىٰ فسيبقون في شنقيطي قادةً للنواة الغلاوية هنالك[٣].

في شنقيطي أيضًا تشكّلَت النواة الأولىٰ لقبيلة السماسيد أو الشماسدة، حيث تنسب التقاليد ظهور الجد الجامع لها، شمس الدين، الذي يبدو أنه انتمىٰ للطبقة الدينية المتعلمة في المدينة. ولم تغادر قبيلته المدينة إلا في القرن الخامس عشر بعد صراعات قوية علىٰ إمامة الصلاة[٤]. وربما لم يكن البعد «الزاوي» لشنقيطي

---

(١) انظر مثلًا:

Lynn White, *Medieval Technology and Social Change* (Oxford: Oxfored University Press, 1962.

(2) Abdel Wedoud Ould Cheikh. *Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la societé maure precolonial (XI eme siècle -XIX eme siècle): essai sur quelques qspects du tribalisme* . Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, Tome I, p. 71

(3) Ould Khalifa, 64-65.

(٤) نفسه، ص ٧٧.

واضحًا لدىٰ تأسيسها، ولكنّه سيترسّخ لاحقًا في سردياتِها وتصوُرِّها لنفسها. وقد بقي في الأذهان أنها سابع مدينة في الإسلام، وهي أسطورة واضحة؛ ولكنها كانت تعبر عن مركزية الإسلام في المدينة، وتصوّر المدينة لمركزيتِها في تاريخ الإسلام. وكان يُقال إنه كان بالمدينة نفسها أحد عشر مسجدًا ومائة بئر[1]، وهو عدد يعبِّر عن مساحة واسعة وعن ازدهار كبير للمدينة. ورغم أن هذا لم يُثبَت حفريًا إلىٰ حدِّ الآن، إلاّ أنه يتفق -في صورته العامة- مع وصف زائر للبلاد في القرن الخامس عشر هو ملشويور بيتوني.

❁ ❁ ❁

لعلّ وادان هي المدينة الثانية أوالثالثة من المدن التي ظهرت للتاريخ في الفترة اللاحقة للعهد المرابطي الكلاسيكي. قبل القرن الثاني عشر كانت مكانًا قفرًا تُرجم اسمه إلىٰ أنولانن، الذي كان قد ترجمه الناقلون إلىٰ «**ذو الملاحس**» أو «المكان الذي تأوي إليه الوحوش». وقد ظلّت مفازةً وقفرًا حتّىٰ لجأت إليها مجموعات من النواة الأولىٰ لقبيلة مسوفة (في رواية صالح بن عبد الوهاب)، أو تيزكَة (في رواية الشيخ سيد محمد الكنتي)، وبنت بها «دويرات وأخصاصًا» جاعلة منها تجمعًا قرويًا صغيرًا. وربما آوىٰ إليها التكرور الذين حاربوا مع المرابطين، حيث ربما بها توفي، وعلىٰ كلّ حال دُفِنَ بها لابي بن ورجابي، الذي نجىٰ من الثورة الجدالية في **تبفريلا** في عام ١٠٥٦. غير أن الازدهار الحقيقي لودان لن يبدأ إلا عندما انفتحت المدينة علىٰ الوافدين الجدد من تفرلة وتامكَونة الذين انقسَموا فيها في قرىٰ مستقلة، قبل أن تقدِمَ إليهم هجرة **الحجاج الثلاثة**، الحاج عثمان والحاج يعقوب والحاج اعلي، الذين تذهب الروايات التأسيسية شبه الميثولوجية للقبائل إلىٰ أن من أعقابهم تكوّنت بطون قبيلة إيدولحاج: إيدایاقب والوتيدات وإيدوبجة وأولاد الحاج. ثم التحقت بهؤلاء مجموعات أخرىٰ كالصيام والشرفاء وإيدوعلي[2]. وعلىٰ كلٍّ حال، فمن الواضح

(١) نفسه، ص ٧٥.

(٢) الكنتي، الرسالة الغلاوية، ص ١٣٣؛ المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٦١.

أن ودان، بعكس معظم المدن التاريخية الموريتانية، لم تبدأ مع الآباء المؤسِّسين؛ وإنما كانت مقرّ حياة مزدهرة لتجمعات سكنية سودانية. ولا تزعم سردياتها التأصيلية أنها بدأت مع الصنهاجيين القادِمين، وإن كانت تربطُهم بالحياة الحقيقية في المدينة وتنسىٰ الملامح العامة، ناهيك عن التفاصيل النسبية والسياسية، لمجتمعات تفرلة وتامكَونة.

ولا نعرفُ الآن بالتحديد الأساس لهذه القطيعة السردية، وهل هو مجرّد مركزية صنهاجية أم أنّه يتعلّق أيضًا بتحوّلاتٍ إنتاجية في المدنية. ومهما يكن من أمرٍ، فإن ودان الجديدة، ودان الصنهاجيين الدّاخلين، أصبحت محطّة تجارية مهمة، واقتدرت علىٰ استحضار المواد التجارية ومقايضتها مع المدن القريبة والبعيدة. وفي القرن الخامس عشر صارت من أهمِّ، إن لم تكن أهمّ، مدينة في المنطقة الوعرة بآدرار التي عرفها الرحالة فرناندس باسم «**جبل البافور**». وفي بداية القرن السابع عشر بلغ عدد سكانِها ٤٠٠ ساكن، حسب تقديرات فرناندس، الذي زارها؛ بينما رأىٰ بعض المؤرِّخين الحديثين أنها وصلت قبل ذلك إلىٰ ٥٠٠٠ ساكن. ولا شكّ أن التضارب الصارخ والتناقص والتزايد طردًا وجذبًا في عدد سكان القرىٰ كان معلمَ التقري والديموغرافيا ما قبل الحداثية عمومًا بفعل الأوبئة والمجاعات التي كانت تُعيد القرىٰ إلىٰ عدد متناقص بعد بلوغِها عددًا وفيرًا. ولعلّه كان متعلِّقًا أيضًا بتضارب حظوظ الملح، الذي غدا تجارة ودان ومصدر ثرائها، وكانت القوافل تحمله من جبل «الجل» إلىٰ وادان فيُصدِّرُه التجار من ثمَّ إلىٰ تيشيت ويبيعونه بالثمن المضاعف، كما نقل ذلك أيضًا فرناندس[١].

❀ ❀ ❀

Norris, H. T. ' *Sanhaja scholars of Timbuctoo* ', Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1967, 30, 634-40.

(1) Fernandes, 83,85; Norris, *"Sanhaja Scholars of Timbuctoo,"639-640.*

وعن نموذج التزايد والتناقص السكاني في ما قبل الحداثة ومقارنته بالتزايد السكاني في الحداثة انظر:

Alan MacFarlane, *The Riddle of the Modern World: of Liberty, Wealth and Equality* (London: Polgrave, 2000).

كانت تيشيت بدورها مدينة أساسية ومعلمية في الخط التجاري وقد بدأ الشروع في بنائها، أو إعادة تشكيلها، في منتصف القرن الثاني عشر[١]، ومرّةً أخرىٰ لا تختلِفُ قصتُها السردية كثيرًا عن قصة ودان، التي يُبدأ فيها التاريخ مع قصة الوافدين عليها، وبالأخصّ من مجموعاتِها الصنهاجية الغالبة علىٰ سكانِها الأصليين. كانت تيشيت مجرّد قصر صغير عندما هبط إليها مهاجر من الشرفاء هو الشريف عبد المؤمن بن صالح الذي يبدو أنّه بلغَ فيها مقامًا مرموقًا عندما بنىٰ مسجدها في منتصف القرن الثاني عشر، وتمكّن بها من استقطاب التجمعات القروية الصغيرة القريبة. ويبدو أنه نجح في جعل التجمع الجديد يخضع لقيادته الدينية هو وحليفه، الحاج عثمان الذي ينتسب له أغلب إيدولحاج[٢]. وفي القرون اللاحقة أصبحت هذه الكَصور مقصدًا تجاريًا، خصوصًا أنها كانت ذات نخل كثيف وكانت قريبة من السباخ الملحية، وكانت تزدهر شيئًا فشيئًا. وربما كمنت قيمة المدينة في توسُّطِها للمدينتين التجاريتين، ولاتة ووادان، فكانت موضع استراحة قوافلية ومكانًا لتبادل المواد التجارية بين المركزَيْن. وصحيح أن التيشيتيين كانوا يدفعون ضعف ثمن الملح القادم من وادان مقابل الحصول عليه، كما لاحظ زائر في القرن السادس عشر، ولكنهم كانوا يحقِّقون بدورهم أرباحًا في التجارة مع ولاتة في الجنوب[٣] وربما مع بلاد السودان.

❁ ❁ ❁

ولا شكّ أن ولاتة كانت أكثر هذه المدن ازدهارًا ودخولًا في التاريخ الأكثر تشعبًا وتعددًا ثقافيًا. ويمكن العودة إلىٰ الفصل السابق الذي خصصناه

---

(١) إن تاريخ تأسيس تيشيت هو موضع تضارب، فبينما تذهب تواريخ إلىٰ اعتبار أنها بنيت في القرن الثالث عشر، فإن تاريخها المحلي يرىٰ أنها أُسست في القرن الثاني عشر، وهو ما يتماشىٰ مع تاريخ ودان حيث هاجرت عناصر من ودان إلىٰ تيشيت كالشريف عبد المؤمن نفسه. انظر أيضًا:

Meunié Jacques. Cités caravanières de Mauritanie Tichite et Oualata. In: Journal de la Société des Africanistes. 1957, tome

27 fascicule 1. pp. 19-35

(٢) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٦٢.

(3) Fernandes, 85.

لبلاد التكرور التي مركزنا فيها ولاتة.

❁ ❁ ❁

من الواضح أن هذه المدن تطوّرَتْ وازدهرت وتثاقفت بسبب الخطّ التجاري الذي يربطها فيما بينها وينقل تجارتها، كما يأتيها بالتجارة، من خارجها. وبفعل هذه الحاجيات الإرسالية والتبادلية والتثاقفية حبّذَت التجارة وجود بلداتٍ وقُرىٰ تتواصل وتتراسل عبر الخطوط التجارية تمامًا كما خطّت البلدات والقرىٰ مسالِكها وسُبُلَها إلىٰ الحواضر التجارية. وهكذا خلقت البلداتُ المسالكَ القوافلية تمامًا كما خلقت هذه المسالكُ البلدات. ونعرفُ من هذه البلدات، التي كانت أيضًا مُطلّة علىٰ الوديان، آوليل والشرايك وفارا وتنيگي، التي لعلّها كانت أهمّها، وعلىٰ كلّ حالٍ أخلدَها. تأسّسَت تينيكَي في القرن الثالث عشر وصارت محطة مهمة للتزّود والتزويد التجاري ما بين وادان وبقيّة آدرار. كانت تجمعًا لقبيلة تجكانت التي ستُصبِحُ وافرة في قادم القرون، والتي انتسبت إلىٰ أبٍ مؤسِّس يُسمّىٰ «جكن» أو «جكير». والقليل الذي نعرِفه عن المجموعة في هذه الفترة هو أنها توطّدت بدايةً في تجمعاتٍ ناطقة بالصنهاجية في وحدة قبلية أولىٰ، هي **دق تجكنت** أو **أغدا تجكن**، التي كانت تعني بالصنهاجية «**المنحدرون من جكن**»، وإن كان الدّارس توماس وايتكومب يُلمِّحُ إلىٰ أنها ربما نبعت ممّا هو مغاير للرواية القبلية[1]. وكما يُعطي مثال الجكنيين، فإن دور التشعبات والامتزاجات النسبية بقيَ مهمًا في هويات المدن التجارية؛ ذلك أن المجموعات الجكنية قدمت أصلًا من الواحات وامتزجت مع بعض المحلات المرابطية التي سكنت لفترة في ودان قبل أن تهاجر إلىٰ تنيگي[2]. وتنسب الروايات التأسيسية دومًا لمجتمع تنيگي القِيم الجكنية اللاحقة، وخصوصًا الثراء والعلم[3]، وهو ما يحيل في هذه الروايات، وإن ضمنيًا، إلىٰ تمايز بين التجار والمتعلمين الدينيين. سيدوم ثراء

(1) Thomas Whitcomb. New Evidence on the Origins of the Kunta. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 38,No. 1(1975), 123.

(٢) بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٥٩.

هذه المدينة حتىٰ القرن السادس عشر عندما انهارت نتيجة لحرب أهلية. باختصار، ربطَ الطريق التجاري بين كل هذه الكَصور وأرسىٰ بينها ثقافة تجارية وأدبية-علمية. وفي القرن السادس عشر كانت المدن الأربع: شنقيطي، وادان، تنيگي، وآوليل؛ هي المدن الأبرز من بين المجال السكاني المدني الكبير في آدرار الذي ضمّ أربعة عشر واديًا و**تاكرارت** أو رباطًا هو «فارا» الذي ذكره فرناندس[١]، وما زال غامضًا بالنسبة إلينا.

❁ ❁ ❁

ربما بفعل انتظام الحياة الكصورية، وخصوصًا انتظامَ نخبها، في التجارة والمثاقفة الدينية والإقطاعية العسكرية استقرّ عقد سياسي واجتماعي مختلف فيما بعد القرن الأول من العصر المرابطي. وهو استقرار ربما ساعد فيه عامل التجارة وتعدّد الموارد. ورغم صعوبة تصوّر الصحراء خصبة ووافرة، إلا أن هذه هي بالفعل الصورة التي نقلتها بعض المصادر الوحيدة المكتوبة في هذه الفترة. وواضح أن الجفاف الكبير الذي أفسد الخصوبة وقضىٰ علىٰ الحياة الزراعية والرعوية كان ما يزال بعيدًا عن مناطق كثيرة في الصحراء وبالأخصّ مجالها المدني، وربما لم يعصف هذا الجفاف بشكل ملموس وقوي إلا في القرن السابع عشر فبقيت المنطقة خصبة ووافِرة حتىٰ مطلع القرن السادس عشر علىٰ الأقّل[٢]. ورغم أن أسراب الجراد الكثيف كانت تهاجم المساحات الخضراء كل ثلاث سنوات في منتصف القرن الخامس عشر[٣]، إلا أن المحاصيل والفواكه والخضار، التي ستختفي لحدٍّ واسع من مجال الصحراء في القرون اللاحقة، كانت متوفِّرَة[٤]. ولم يكن توفُّرها موضوع نضال تجاري وبحث طويل في الجنوب كما سيحصل لاحقًا. وحتّىٰ في هذه الفترة الخصبة، والمُبكِّرة، كان محصولٌ

---

(١) فرناندس، ص ٧٠.

(٢) انظر التحقيب البيئي للصحراء في:

Webb, Desert Frontier, 5.

(3) Ca'da Mosto, 60.

(4) A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London 1810, 1.

نباتي من فترة الجفاف -هو الصمغ- يستقطِب طلبًا تجاريًا، وإن ظلّ نسبيًا قبل القرن السابع عشر، من تجارة البحار الأوروبية.

وسرعان ما استقطَبَت مدن الصحراء التجارية المُتاجِرين من خارج الخط القوافلي التقليدي: الأوروبيين الصاعدين. وسيُعطي الوافدون منهم في القرن الخامس عشر دفعًا للتجارة لن يتوقّفَ طوال القرنين اللاحقين. ولم يكونوا في ظلمة عما يُريدونه في الصحراء. ففي القرن السادس عشر وتحديدًا في يناير عام ١٥٩١ كان تاجر برتغالي -هو ملتشيور پيتوني Melchior Petoney- ما زال مبهورًا بإمكانية الأرباح من الصحراء، فأرسلَ يحثّ شريكه علىٰ الاستثمار فيها:

إنها بلاد خصبة في هذه الأرض وتنتج كثيرًا من القمح واللحوم من الأنواع كافة، ولها وفرة في الفواكه. وعليه، فإذا أمكن لك أن تتعامل جيدًا مع جلالته فإما أن يرسل هو مركبَيْن أو يعطيك رخصة بنقل البضائع إلىٰ هنا؛ إذْ هنا ميناء جيد، ويمكن للسفن أن ترسوا فيه جيّدًا عند القلعة [حصن آرغين]. تقع مناجم الذهب في مملكة اسمها **درها**[١]. وفي هذه المملكة توجد سلسلة كبيرة من المدن، الكبيرة والصغيرة. ويوجد في كل مدينة قائد له جنوده، وهؤلاء القواد هم أسياد المدن وملاكها. تدعىٰ إحدىٰ هذه المدن كوتون [وادان]، والأخرىٰ زنيتين [شنقيطي]، وثمّة توبكُير [آبوير] وأزغة [أزوقي] وأمدير [أمدير] وكاهرك [الشريرك] ومدينة فارو [فرني]. إنها مدن كبيرة جدًا ومبنية بشكل جميل، ويسكنها البيضان الأغنياء الذين يتوفّرون علىٰ أنواع المواشي والشعير والتمر كافة، وثمّة الكثير من الذهب الذي يوجد في الأراضي القريبة من النهر[٢].

---

(١) يعني آدرار؛ لأن المدن التي سيتكلم عنها كلها تقع في آدرار.

(٢) ص ١ من

A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London 1810.

اقتراح مطابقة الأسماء التي أوردها مليشوار هو من عند نوريس في مقاله ZNAGA ISLAM، أما اقتراح فرني بالنسبة إلىٰ فارو فهو ينسبه لمحمد مولود ولد داداه. المدن المشار إليها كلها مدن شهيرة في آدرار، أما الشريرك فهي مدينة قديمة بها مدفن العالم الغلاوي، أحمد ولد البشير ولد الحنشي، ص ٤٩٧.

ولم يكن ملتشيور پيتوني يعبِّر إلا عن حالة تجارية اختُبِرت قبله بعقود. فمع منتصف القرن الخامس عشر علىٰ الأقل، حسب مشاهدة الرحالة البندقي، ألفيس دا كاداموستو (١٤٣٢-١٤٨٣)، كانت النخب التجارية الأوروبية الصغيرة قد جعلت من السواحل الإفريقية، بما فيها الصحراء (موريتانيا)، مراكزَ نشطة للتبادل التجاري وكانت تدرُّ منها عائدات النقل ذهابًا وإيابًا بالبضائع، رابحة بذلك فارق القيمة الجغرافية والثقافية للبضائع. لعقود طويلة ظلّت المواد الأوروبية التي يأتي بها البرتغاليون تخلب ألباب الصحراويين في المدن، وكانت تدفعُ هؤلاء للإتيان بكثير من الذهب من الجنوب لمقايضته بها في ميناء آرغين مع الإيبريين. وبفعل العرض البرتغالي، كما غيره في مناطق التبادل التجاري، نمت عادات استهلاكية في أوساط أثرياء الصحراء الذين كانوا بالأخصّ يحبّون الملابس الأرجوانية والقرمزية البرتغالية وكانوا يدفعون مقابلها كثيرًا من المال[١]. وبعد أكثر من قرن من وفاة كاداموستو كان پيتوني، بحكم خبرتِه، يقترح علىٰ مراسله وشريكه نيجيل دا مورا، في لشبونة، المواد القابلة للتسويق في الصحراء؛ فأوصاه بإرسال مركب ينقل سنويًا البضائع الإسبانية وتلك القادمة من الفلاندر في بلجيكا الحالية، موصيًا أن تركِزَ هذه المواد علىٰ «أساور الذهب والسكاكين والأواني والملابس القطنية والمرايا والأنواع الأخرىٰ من البضائع الصغيرة». وأضاف ملشيور بأن «جلالته سيقدم عملًا عظيمًا» إذا قام بهذا[٢].

❁ ❁ ❁

في البداية أتىٰ البرتغاليون للسواحل الصحراوية في إطار الطفرة التجارية المتوسطية، المزدهرة منذ عصر فيليب الثاني، التي خلّدها فيرينان بروديل في حديثه عن «**عالم المتوسط**»[٣]. وكان القادمون للصحراء من الأوروبيين تجارًا صرفًا، أو هكذا بدوا؛ إذ نزل البحار البرتغالي ألفونسو غولفانس بالاديان في

(1) A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London 1810, 1.

(٢) نفسه.

(3) Fernand braudel, *La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Librairie Armand Colin, 1966).

وادي الذهب في عام ١٤٣٦، واشترىٰ عبيدًا من صحرائه وأقفل بهم. ويبدو أن هذا الحدث، بما كان قد ترتَبَ عليه من تكهنٍ أو معاينة لثراء المنطقة، كان تسويقيًا للصحراء وسط أترابِه وأمثالِه، وفي أوساط تجار المركنتالية الأوروبية الوليدة عمومًا. ففي عام ١٤٤٢ نزل البحاران نونيو تريستاو وأناو غونسالفس جنوبًا إلىٰ الرأس الأبيض وأقاما به موقعًا تجاريًا في آرغين[١]. ونُخمِّن أن تاريخًا من التبادل التجاري بين الصحراء وإيبريا قد قامَ فيما بين التاريخيْن. ولوهلة بدا أن العلاقة التجارية ناجحة ولا تتعلّق بأكثر من إنشاء منطقة تجارية للمقايضة مع الأهالي. غير أن المطامع البرتغالية سرعان ما تطوّرت إلىٰ مشروع اغتصاب عندما عنّت للمستكشفين فرصٌ لكسب «البضائع» بلا مقابل. وهي قصة كانت تحدثُ في الوقت نفسه في سواحل المغرب، حيث ترّنح التحالف الوطاسي-المريني، فتضعضعت الدّولة المركزية في المغرب واحتلّ التجار المحاربون من الأسبان والبرتغاليين السواحل. ولم تختلِف الصّحراء كثيرًا عن هذه السردية، بل لعلّ تسيُّبَ المغرب سيّقَ نهب الصّحراء. إذْ سرعان ما عنّت لهؤلاء التجار فرصٌ في كسب العبيد، أو تعبيد الأحرار، بالقوة والمنعة، فتبعَ من ذلك تحولهم من تجارٍ مقايِضين إلىٰ غزاة باحثين ناهبين عن العبيد؛ وقد ساعدتهم في ذلك بواخرهم التي خاف منها البيضان القريبون من الشاطئ عندما رأوها أول مرة واعتبروها طيورًا أو أسماكًا عملاقة، حسب الرواية البرتغالية. وهكذا نزل المستكشفون وقاموا باختطاف السكان وشرعوا في إرسالهم إلىٰ البرتغال عبيدًا للملك[٢]. ويبدو أنّ هذا كان بداية لممارسة مطّردة. ولعلّها بلغت أوجها في ٨ أغسطس عام ١٤٤٤ عندما وصلت إلىٰ البلاط البرتغالي للملك هنري الثاني سفينة مشحونة بـ٢٣٥ عبدًا أكثريتهم من الأزناكَة (صنهاجة) المختطفين من شمال موريتانيا الحالية، وكانوا «مشهدًا مثيرًا» حسب ما يُخبِرُنا الراوي البرتغالي؛ «لأن البعض منهم كان أبيضَ البشرة بما يكفي ونضرًا بما يكفي، و[كانوا] مفتولين جيدًا»[٣].

---

(1) Maurice Barbier, Trois Francais au sahara occidental en 1784-1786, Paris: Harmattan, 1984, 10-11.

(2) Ca'da Mosto, 50-51.

(3) Zuraara as qtd in Hugh Thomas. The Slave Trade: The History of Atlantic Slave Trade 1440-1870. New York: Touchstone, 1967,p. 22

وتمامًا كما سيحدث لاحقًا في اكتشاف أمريكا، فإن الرغبة الإيبيرية في السيطرة علىٰ موارد الأهالي أسفرت عن حرب بين الأهالي والرواد القادمين من إيبيريا. تحدّث كاداموستو عن حرب بين البيضان والنخّاسين البرتغاليين الذين شنّوا حرب تعبيد استمرت ثلاثة عشر عامًا، ولم تنتهِ إلا بدواعٍ داخلية وذلك عندما أمر الملك البرتغالي اليافع بوقف الهجمات علىٰ الصنهاجيين وإفساح المجال لتنصيرهم، حسب المصادر البرتغالية[1]. أما من منظور الصحراء، التي لم يصلنا صوتها في هذه الفترة، فيمكن التكهن أن مقاومة أهلِها ورغبة خصومهم في التبادل التجاري السلمي كانت العامل الأهم في تغيير مسار الحرب. وليس علينا أخذ الرواية البرتغالية علىٰ علّتها، فقد استمرت هجمات البرتغاليين حتّىٰ بعد الأمر الملكي المزعوم. كما أن البيضان قد أظهروا، بحسب الروايات البرتغالية نفسها، مقاومة واضحة للإيبريين؛ ففي عام ١٥٢٢ استطاعت سرية بيضانية[2]، بقيادة أمير منهم يدعىٰ بيلالة، اعتقال بعض الاستعباديين والمُختطِفين البرتغاليين وأسروهم وفشل البرتغاليون في تخليصهم بعد معركة دامية ثم فشلوا بالمفاوضات، ولم يستطيعوا إطلاق سراحهم إلا لاحقًا وبعملية عسكرية قادها قائد يدعىٰ كَبوريه[3]. ويبدو مع مطلع القرن السادس عشر أن الصنهاجيين أقاموا تعاونًا مع البرتغاليين يُمدّونَهم فيه بالعبيد، بدلًا من أن يستعبِدَهم البرتغاليون أنفسهم؛ ذلك أن الوثائق البرتغالية تتحدث عن قائد لانيرزيگ Narzigues (وهي كما يخمِّن بعضُ الدّارسين إمارة أو تجمع قبلي صنهاجي سبَق مقدَم بني حسّان، وكان قائمًا في بداية القرن السادس عشر) اسمه داما هاجم القرىٰ السودانية في الرأس الأخضر، في الجنوب البعيد، فيما وراء النهر وما وراء السنغال، ودمّرها

(1) Ca'da Mosto, 50-51.

(٢) آمل أنني لا أستخدم مصطلح «البيضان» بمفارقة لدىٰ الحديث عن هذه الفترة المبكِّرة من عدم انصهار المجموعات الصنهاجية مع العربية في مجتمع واحد، غير أن مدعاة الأخذ بهذا المصطلح قبل تشكل مجتمع البيضان يأتي من خلط العرب والبربر في المصادر البرتغالية التي تتحدّث عن هذه المرحلة؛ حيث لا تتضح الفروق بين الودايا والنرزيك، ولا تتضح هوية معظم التجار. وما نعرفه أن هذه الفترة تشهد تداخلًا جغرافيًا وإنتاجيًا بين كلّ العناصر، وهذه بيضنة مبكِّرة.

(٣) الحسين ولد محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٦١.

وقام في المقابل بتوريد العبيد إلىٰ البرتغاليين هنالك[١]. وربما استشعر ملك انيرزي الخوف بفعل منافسة الموانئ الإفريقية له علىٰ تجارة العبيد المربحة.

إذن، يبدو أن المقاربة البرتغالية للساحل الصنهاجي قد تطوّرت لغاية أكثر نفعًا وأدرّ دخلًا، وهي المتاجرة مع البيضان. وهكذا توقّفت الهجمات وبدأ عهد من التجارة والتبادل. وسيقوم البيضان بشحن العبيد السونينكي والولوف بمعدل ٤٤٠ عبدًا سنويًا في القرن السادس عشر[٢]. وفي المقابل حصل البيضان علىٰ قطع القماش الثمين من البرتغاليين. وقد عُرفت قطع القماش عمومًا في الثقافة المحلية باسمها البرتغالي «**بيصة**» أو peça؛ وهو -للمفارقة- الاسم نفسه الذي عرف به البرتغال العبيد المقايضين في حوض آرغين[٣]، ما يبدو منه أن هؤلاء العبيد اشتهروا بمقابلهم البرتغالي. (وهو ما يجعلنا نعتقد أن كلمة «**بيصة**» قادمة من الأصل البرتغالي، وليس من الأصل الفرنسي، الذي هو الرأي السائد في المجال الموريتاني؛ لأن الفرنسيين أتوا بالقماش وظلوا يقايضونه بالعلك مع البيضان في القرن السابع عشر إلىٰ القرن العشرين). وعلىٰ العموم، فقد كانت المعاملات التجارية بين البربر والعرب مع البرتغاليين تتمّ عبر وسيط ومترجم عرفه البرتغاليون باسم «**جاغاراف السوداني**» أو «**جغرف**» **السوداني** jagaraf of the blacks، الذي كان متمرِّسًا في البرتغالية والعربية والولفية والبولارية[٤]. ولعلّ لقب «**جغرف**» هذا قد أُخِذَ من التقاليد الولفية في منطقة سالوم في هذه الفترة؛ إذْ يُخبِرنا الرحالة البرتغالي أن اللقب عنىٰ القائد العسكرىٰ، ولم يكن في المملكة منه غير اثنين يُشرِفان بدورِهما علىٰ قواد القبائل والمجموعات المُحاربة في منطقة سالوم نهر غامبيا[٥]. ولا نعرف هل كان الوسيط السوداني هذا امتدادًا لنفوذ سوداني، خصوصًا أن هذه الفترة شهدت توسّع الولوف إلىٰ المناطق شمال نهر السنغال،

---

(1) De Almeida Mendes, p. 29.

(٢) نفسه، ص ٢٦.

(٣) نفسه، ص ٢٦.

(٤) نفسه، ص ٢٩.

(5) M. Ly-Tall, "The Decline of the Mali Empire," D. T. Niane, *The General History of Africa. Vol IV: Africa from the Twelfth to the Sixteenth Century*, California: UNESCO, 1984, 183.

أم أنه كانَ لقبًا استقدمه البرتغاليون. ورغم أن اسمه يبدو شبيهًا بـ«**يغرف**»، المزدهر في التقاليد البيضانيّة اللاحقة، إلاّ أنّنا نعرفُ أن البرتغاليين في هذه الفترة تصاهروا مع الأفارقة في منطقة السنغامبيا وخلفوا مجتمعًا يتواصل بالبرتغالية واللغات المحلية بما فيها أحيانًا الصنهاجية والآزيارية والعربية[١].

وعلىٰ العموم، فقد كان العبيد موجودين دومًا في المجال، وإن بصفة غير تجارية وبكميات محدودة[٢]، ولكن مع قدوم المركنتالية الأوروبية الأولىٰ المدفوعة بالرغبات الترفيهية للأرستقراطية الإقطاعية، وحتّىٰ البرجوازية الوليدة؛ فإن النخاسة أصبحت مهمة، ليس للأوروبيين فحسب، بل وأيضًا لتجار الصحراء فأخذت طابعًا جديدًا، وأدخلت البشر في تجارة القوافل والاقتصاد الحربي. ولا شكّ لدينا أن هذه النخاسة كانت مربحة جدًا بالنظر إلىٰ نموها السّريع؛ فقد استوردت الجزيرة الإيبرية عن طريق التجار البرتغاليين في فترة القرن ونصف القرن ما بين ١٤٥٠-١٥٩٩ ما يتفاوتُ بين ٣٠٠٠٠٠ و٣٥٠٠٠٠ عبد من إفريقيا منهم ١٠٠٠٠ عبد شحنوا من ميناء آرغين في فترة ربع قرن[٣]. وفيما يتعلّق بنوعية المتاجرين في هذه «**البضاعة الحية**»، فإنهم كانوا يشكّلون عموم أجناس الصحراء من البربر والعرب، الذين ربما لم يشهد تنظيمهم الاجتماعي في تلك الفترة تقسيم عمل بين أرستقراطية محاربة وأخرىٰ متعلِّمة بالشكل الذي سيشهده لاحقًا. كان مربو الخيول البربر في المدن الصنهاجية الصغيرة يقايضون العبيد بالخيل في السودان، وذلك عبر المدن الصنهاجية: ولاتة وشنقيط وودان وتيشيت وتمبكتو. وبعد الانتهاء من شراء العبيد، فإنهم كانوا ينقلوهم إلىٰ آرغين حيث تستلِمُهم مؤسسة الملك البرتغالي فتشحنهم إلىٰ برقة ومن ثمَّ إلىٰ المغرب والجزائر وتونس أو صقلية[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر مثلًا:

Peter Mark, "Portuguese" Style and Luso-African Identity: Precolonial Senegambia, Sixteenh-Nineteenth Century, Indiana: Indiana University Press, 2002.

(2) McDougalll, E. Ann. Salt, Saharans, and the Trans-Saharan Slave Trade: Nineteenth-Century Developments," in Savage, ed., "*Human Commodity*," pp. 61-88.

(3) De Almeida Mendes, 20

(4) McDougalll, E. Ann. *Salt, Saharans, and the Trans-Saharan*, 63.

في الحقيقة كانت العلاقة ما بين البيضان والبرتغاليين، برغم مناوشات بينهم في القرن السادس عشر، قد استقرّت في ستينيات أو سبعينيات القرن الخامس عشر علىٰ غلبة التبادل التجاري. نعرِفُ هذا من تواريخ الاهتمام بإنشاء مكان مستقر للتجارة البينية بين الطرفين. ولم يكن هذا المكان غير آرغين التي سرعان ما أصبحت بمثابة سوق حرة. وكان يمكن لهذه التجارة أن تتطوّر إلىٰ شبكات للبرتغاليين في عمق البلاد في آدرار. ففي عام ١٤٨٧ أقام الملك جان الثاني شركة أو مصنعًا للتجارة مع البيضان في ودان، ولكنه لم يستمر إلا لسنوات بسبب عداوة البيضان له[١]. ومن الواضح أن التجارة البرتغالية ولّدت عداوات لا نعرف تفاصيل طبيعتها. وقد وجد بعض الآدراريين مصلحة في تدمير المراكز البرتغالية. ولعلّ هذا قد أجبر البرتغاليين علىٰ الاكتفاء بالتجارة السواحلية بدلًا من التغلغل إلىٰ المدن التجارية. فقد كان الوضع في آرغين النائية مستقرًا وكانت تجارتها مزدهرة؛ إذ لم تكن بها سلطة قبلية أو تجمع سكاني مقيم بذاته، وكان وضعها الجغرافي مناسبًا أكثر من أيٍّ مكان في الحومة. وقد توقف الرحالة البرتغالي فرناندس عند وصفها:

> إن آرغين، أو **آرغيم** كما يسمِّيها البيضان هي جزيرة تبعد عن بقية الأرض بفرسخ. في هذه الجزيرة عين رائعة تُجْرِي الماء السلس، وبالقرب من هذا توجد ثلاث أعين مائية تعطي ماءً مقيتًا وعسيرًا، متوسِّطَ الملوحة والعذوبة، وإن كانت الغلبة لوساخته. في هذه الجزيرة لا توجد أشجار، والأعشاب التي تنمو بها عندما تأتي الأمطار هي علىٰ درجة [من عدم الصلاحية بحيثُ] إن الغنم ما إن تأكلها حتىٰ تسقط ميتة. لا يوجد بها دجاج أو إوز أو أية دواجن أو ماشية. وفي هذه الجزيرة قرب القصر يسكن حوالي سبعين شخصًا من البيضان يدعون بـ**أزناكَة**[٢].

---

(1) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la societe maure precolonial (XI eme siècle -XIX eme siècle): essai sur quelques qspects du tribalisme. Tome I. Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, p.70.

(2) Valentine Fernandes. Description de la cote d'afrique de Ceuta au Senegal. P. DeCenival et Th. Monod (Eds) Paris V, Librairie Larousse, 1938, 53.

كانت آرغين قد بدأت بفرض قيمتها في وقتٍ مبكر. فقد شرع البرتغاليون في بناء قصر مشيد للتجارة فيها بدءًا من أيام الأمير هنري (توفي ١٤٦٠)، ولكن تشييده لن ينتهي إلا في أيام الملك جون الثاني (١٤٧٧-١٤٩٥)، ربما في أواخر السبعينيات. وكان يقيم به ويُدير أعماله قبطان تحته إداريان: وكيل تجاري للملك وكاتب للقبطان يشرفان علىٰ المراسيم التجارية ويفرِضان الضرائب علىٰ المعاملات التجارية التي كانت من حقِّ التاج البرتغالي وتعود منها أسهم لصالح وكلائه في آرغين. وكانت رئاسة التجارة بآرغين بمثابة إقطاع معلوم الأجل؛ إذْ كان الملك يُعيِّنُ وكلاءه لمندوبية مدّتها ثلاث سنوات[١].

وممّا كان التجار البرتغاليون يأتون به لآرغين الشراشف الصوفيّة الزرقاء والحمراء وأنواع الثياب المختلِفة التي أقبل عليها كثيرٌ ممن يقدر عليها من العرب والصنهاجيين الذين كان يسود بينهم العري والتقشّف؛ فكانت هذه فرصة البرتغاليين لتسويق الجلابيب ومعاطف البرنس ونوع من الثياب عُرف آنذاك بـ «**الحائك**»، إضافة إلىٰ العباءات والثياب المغربية المستورَدة من دكالة في غرب وسط المغرب والبردة المستوردة من مصر واللندن، وهو عبارة عن قصديرة صغيرة في هيئة قميص توضع فوق البرنس، إضافة إلىٰ القماش المغربي والقبعات الصوفية والأسرجة والحصائر ومواسي الحلاقة[٢].

ولم يأتِ البرتغاليون للصحراء فقط ببضائع الرفاهية، بل -مثلهم مثل الأوروبيين بعدهم- كانوا يبيعونها الأسلحة، وهي بضائع كانت حتمًا تساهم في تقوية زبائنهم وتساعدهم علىٰ اختطاف العبيد أو في فرض سيطرتِهم السياسية. ولكنها كانت بضائع خطرة ليس فقط علىٰ السلم في مجتمع البيضان والسودان، وإنّما أيضًا علىٰ التجار البرتغاليين أنفسهم؛ ذلك أنّها كانت تجارة ممنوعة من التاج البرتغالي. ولم يُمنح ترخيص بيع السلاح -الذي كان دومًا عبارة عن سيوف إيبرية بتَّارة- لقوة صحراوية أو سودانية إلا في عهد الأمير الولوفي الثائر بوني جيلين؛ وفقط لأنه اعتنق المسيحية عندما زار لشبونة في عام ١٤٨٨ مطالبًا بالدعم

(1) Fernandes, 51, 63.

(2) Fernandes, 61; De Almeida Mendes, 29.

لنيل عرش مملكة الولوف في السنغال. أما بيع السلاح للبيضان فكان محرّمًا بتاتًا. ولكن، وكما يحدثُ أحيانًا في ظروفٍ كهذه، استطاعت السفن البرتغالية الالتفات علىٰ هذا التحريم وكانت تنجح غالبًا في تهريب الأسلحة وبيعها لزبائنها من البيضان، رغم الرقابة الملَكية القوية. فنعرِفُ مثلًا أنه في عام ١٤٦٠ أرسل الملك ألفونسو الخامس شخصًا يُدعىٰ دييغو غوميس لمطاردة تجار الأسلحة للبيضان والقبضِ عليهم[١].

في المقابل كان البيضان يأتون ببضائعهم الخاصة من عمق المجال ومن بلاد السودان التي يرتبطون بها بقوافلِهم التجارية وعلاقاتِهم الجوارية. بعض هذه المواد كانوا يستعينون علىٰ تحصيلها بمواد قادمة من عند البرتغال. فكانوا يشترون الأسرجة من آرغين ويهيئون بها خيلهم الجيِّدة، ويُغيرون بها في غزوات سريعة علىٰ الجنوب فيغنمون منه العبيد في الأوقات التي لا يأخذون فيها بالتجارة. وحسب ما أفاد به فرناندس، فإن هؤلاء العبيد كانوا يُستجلبون من **غينيا** -وهو الاسم الذي عرف به، مثل معاصِريه- السنغال وغامبي الحاليتَيْن. ومن تلك المنطقة، وخصوصًا في نواحيها المُحاذية للنّهر، كان البيضان يأتون أيضًا بالذهب. واستطاع البعض منهم الاستثراء من مبادلة البضائع بين سكان الجنوب والقادمين من الشمال والاستفادة من وسائطهم التجارية في تحقيق الأرباح. ولم تندر فيهم الاستفادة من ثروتهم البدوية المحليّة، فكان ملاّك الإبل والماشيّة يبيعون الإبل والغنم والبقر للبرتغاليين؛ بينما كان اللاقطون يجمعون الصمغ العربي ويجلبونه للبيع في آرغين[٢]، وذلك في وقت مبكِّر لتجارة الصمغ التي ستعرف طفرة لاحقة بسبب ازدهار صناعة النسيج مع ظهور الرأسمالية السواحلية.

والواقع أن تداخلَ هذه الأنماط التجاريّة الكثيرة فيما بينها وإنتاج بعضِها للآخر كان في حدِّ ذاتِه نمطًا اقتصاديًا طالما أربكَ حسابات الفقهاء والمُستَفتين

(1) Mark Peter and José da Silva Horta, *The Forgotten Diaspora Jewish Communities in West Africa and the Making of the Atlantic World* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), 107-108.

Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, 19-35.

(2) Fernandes, 61-62.

التقليديين. فلم يفهموا أحيانًا كيفية تقدير اختلاط رؤوس أموال وأرباح الطبقة المتاجرة وتشعُّبها في متاهات من الشراء والبيع والمضاربة والمرابحة والديون، مما كان يُغمِّضُ أصول الأموال ويُصعِّبُ إمكانية تغريمها دينيًا. وقد أوصل مستفت إلىٰ الطالب محمد بن الأعمش العلوي (توفي ح. ١٦٩٦)، وهو من الموافقين علىٰ هذا النمط التجاري المتداخِل علىٰ أساس أنه لا زكاة فيه، أوصل إليه هذه الحالة ذاكرًا له كيف أن أهل الصحراء يوظِّفون أموالهم:

فيشترون بها إبلًا ثم يحملون عليها الملح إلىٰ بلاد السودان، فيبيعونَها بالزرع والثياب، ثم يرجعون إلىٰ أهليهم فيأكلون ما يأكلون ويلبسون ما يلبسون ويُنفقون ويُعطون، ثم إن بقي عندهم شيء صرفوه في إبل وملح أو ملح فقط، ثمّ الملح بالثياب، وهذا دأبهم وعادتهم. ومنهم من يبيع الملح بالخيل والعبيد ويتّجر معها كذلك. وبعضُهم يبيع الملح بالذهب والكحال ثمّ يصرِف ذلك في الملح، ثمّ الملح بالزرع والثياب إلىٰ ما لا نهاية [له]، ويعيش فيما بين البيع والبيع بما شاء، وتارةً يعيشون بالربح ويتّجِرون فيما يبقىٰ، وتارةً يأكلون رأس المال والربح ثم يطلبون شيئًا آخر بتداين أو غيره، فلا يتغيّر لهم ما هو لعيشِهم مما هو للتجارة وما هو للغلّة والقيت في غيره...[1].

وغالبًا ما كانت رؤوس الأموال من الماشية والخيل مفيدة لهذا العالَم المُضارِب؛ إذْ كانت رأس مال أو عملةً. وقد جعل امتلاك المدن للإبل والخيل الحيوية في التبادل التجاري مع سكان الجنوب تربيةَ الخيل تزدهر ليس فقط في ودان، الذي ارتبط اسمه لدىٰ الولوف بالخيل الجيدة، فأصبحوا يطلقون «**فاس ودان**»، أو «الحصان الوداني»، علىٰ الخيل العربية الجيدة، بل إن مربي الخيل وسائسيها من العرب والبربر في القرن الخامس عشر بدأوا في استخدام مسارح الحوض في الجنوب الشرقي الموريتاني الأبعد في تربية الخيل[2]؛ ولعلّ هذا كان

(١) الطالب محمد بن الأعمش العلوي، النوازل، مخطوط من مكتبة أحمد بن أحمد محمود القلاوي، ص ١٠-١١.

(2) - Webb. The Horse and Slave, 225.

في وقتٍ باكِرٍ لوصول البيضان إلىٰ تلك البقاع. ورغم أن مقايضة العبيد في ودان في القرن السادس عشر لم تقتصر علىٰ الخيول فقط، بل وطالت الذهب كذلك؛ إلاّ أن الخيل ظلّت العائد الأهم بالعبيد. ولربما لم يكن هذا أصح في وقتٍ مما كانه في منتصف القرن الخامس عشر عندما وصل ثمن الحصان الذي كان يبيعه تجار الصحراء إلىٰ ما بين عشرة إلىٰ خمسة عشر عبدًا. أما التجار البرتغاليون فقد كانوا يربحون في الفترة نفسها ما بين تسعة إلىٰ أربعة عشر عبدًا لقاء الحصان الواحد[١]. ولم تتوقّف تجارة «**المركوب**» علىٰ الخيل، بل وصلت للإبل التي كان التجار يستفيدون كثيرًا من بيعها للسودان، حسب إشارة ليون الإفريقي، رغم أن هذه التجارة لم تعد مزدهرة مع السودان بعده[٢].

وعلىٰ العموم، فقد كان جلُّ هذه التجارة يتمّ في إطار المقايضة، وحتىٰ القرون اللاحقة اقتصَرَ استخدام النقد فيها علىٰ وحدات نادرة ومحدودة التداول في البلاد. فمثلًا في منتصف القرن الخامس عشر قبلت بعض المدن التجارية بالتعامل بـ**الودع**، وهو نوع من القواقع النادرة[٣]. وكانت هذه العملة تُستَقدَمُ من جزر المالديف وكانت رائجة في عدة نواحٍ من إفريقيا بصفتِها عملة تبادلية، وربما كانت أول نوع من النقد الصحراوي، ولن تختفي إلا لاحقًا لصالح عدّة بضائع: صفائح الملح، وقطع النحاس والفضة، وأخيرًا العملة النقدية المتفق عليها من عموم تجار الصحراء: القماش الغيني[٤]. وبشكلٍ عام، كانت المقايضات تتم في أربعة مراكز: ثلاثة منها قرب نواكشوط الحالية، عرفها البرتغاليون بـ«**أنتروت**» Anterote، و«**كابو دا أريا**» Cabo da Area، و«**توفية**» Tofia؛ أما الآخر فكان قرية اسمها **آوكَيج** Awgueij. ولعلّ هذه المراكز تحوّلت إلىٰ مجمع رئيس توطد لاحقًا

---

(1) Webb, Desert Frontier, 83.

(٢) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٩٨٣، ط ٢، ج ١ ص ٦٢.

(3) Ca'da Mosto, 59.

(٤) انظر مثلًا:

"A pre-Colonial Economic History," Z.A. and J. M. Konczacki, eds. An Economic History of Tropical Africa: The Pre-Colonial Period, New York: Frank Cass, 1977, pp. 284-286.

وعُرِفَ بـ«**المارصة**» أو «السوق» في عهد أميرَيْ الترارزة، هدِّي بن أحمد بن دامان (ت في ما بعد ١٦٦٨م) واعلي شنظورة بن هدّي (ت ١٧٢٧)، بعد سيطرتهما علىٰ حوض آرغين وإبعاد أولاد دليم والزوايا[١]. وعليه، فنعتقد أن كلمة «**مرصة**» الحسانية قادمة من البرتغالية، وليس الفرنسية، تمامًا ككلمة «**بيصة**».

❁ ❁ ❁

لعلّ مشكلة التجار البيضان في القرن السادس عشر- ونقصدُ بهم كلًا من العرب الحسّانيين والبربر الصّنهاجيين كما المجموعات السودانية التي تبيضنت في تيشيت وغيرها- كانت نقص الأسواق؛ إذ كانوا يضطرّون إلىٰ الذهاب إلىٰ فاس البعيدة لمقايضة الذهب فيها بالمواد الأوروبية، ومن الأرجح أنهم كانوا يحصلون علىٰ كثير من الذهب الذي كانوا «يعطون حملًا كبيرًا منه مقابل القليل الرخيص من البضائع»، حسب ما نقله مليشور بيتوني في عام ١٥٩١[٢]. وكما في الأساطير العربية الوسيطة حول الذهب ووفرته في بلاد السودان، كان البرتغاليون يُطوّرون أساطيرهم الشبيهة عن الذهب في الصحراء؛ فاعتقد ملشيور بتوني أن البيضان يُقيمون المناجم في أرضهم وأنهم يحفرونها إلىٰ خمسين فرسخًا فيحصلون منها علىٰ الذهب[٣]. وربّما كان هذا صحيحًا؛ ولكن ما هو أصّح هو أنهم كانوا يأتون بالذهب في إطار تجارة بينية أخرىٰ مع بلاد السودان، وكانوا يقايضونه معهم بالملح، حيث تشير وثيقة صادرة في العام نفسه عن رحالتين متاجِرَيْن إنجليزيين، هما: ريتشارد رينولدز وتوماس داسل، إلىٰ منطقة نهر السنغال باعتبارها مكانًا خصبًا للتبادل التجاري للجلود والصمغ والذهب وريش النعام والعاج[٤]. وربما كانت هذه الفترة، التي كان فيها الوجود الصنهاجي في النهر قويًا، هي ما دفع الخرائطيين و/أو البحارة الغربيين إلىٰ تسمية السنغال سنغالًا اشتقاقًا من **نهر سينيغا** أو **صنهاجة**، الساكنين في يمين النهر، كما تشير المصادر الأوروبية، ومنها

(1) De Almeida Mendes, 26.

(2) A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London 1810, 1.

(٣) نفسه، ص ٢.

(٤) نفسه، ص ٢.

وثيقة التاجرين التي أحالت إلىٰ نهر سينيغا، المشتقة من «**زناكَة**» أو صنهاجة. وسنلاحظُ أن هذه التسمية (Senega) أيضًا ستظهرُ في عام ١٧٤٢ في خريطة ويليام دي إيل، التي يماهي فيها المنطقة مع صنهاجة (Zenaga)[١].

وبطبيعة الحال، فإن ازدهار التجارة مع الأوروبيين لم يعنِ أن المدن الصحراوية تاجرت حصرًا في آرغين؛ بل إن تجارة المراكب (البواخر والسفن) علىٰ السواحل لم تتفوّق علىٰ تجارة المواكب (القوافل) بين المغرب والسودان. ولهذه الأسباب فقد بقيت المقايضة والتجارة في السودان مزدهرة، وظلّ إطار **بلاد التكرور**، شرق جنوب المجال مزدهرًا ولم يكن يبعد غير ٣٠٠ ميل من مجال آدرار، وكان التجار من هذه المدن في علاقات نشطة معه[٢]، هذا إضافة إلىٰ علاقات البيضان القديمة مع السودان المزدهرة في تيشيت وبقية تگانت وجنوبها، وبالأخص في بيرو التي ستصبح ولاتة في مرحلة لاحقة. ودليلًا علىٰ هذه العلاقات، فإن الحركة التجارية مع الجنوب الشرقي (مالي) والمجال الغربي (السنغال) فيما وراء النهر لم تخبُ. وكانت الطريق بين ودان وتيشيت تسمىٰ بـ **المسبولة**؛ لأنها كانت عامرة وآمنة. ولعلّ ودان وصلت في هذه الفترة إلىٰ ٥٠٠٠ ساكن، كما يُقدِّرُ بعض الباحثين[٣]، وهو عدد كبير حتىٰ بمعايير موريتانيا اليوم. وعلىٰ العموم، فقد كانت العلاقة بين المدن الآدرارية والسودان تتعلّق بتبادل المواد الثرية في مجاليْهما، ذلك أن القوافل العائدة دومًا من الجنوب كانت تأتي بالنحاس والحبوب وبالفلفل الأخضر المهم للتجارة في الساحل[٤]. وكانت تذهب بصفائح الملح المسافرة من تغازة إلىٰ مالي كما نقل ابن بطوطة قبل أكثر من قرن. وقد نقل كاداموستو أن البيضان من العرب والصنهاجيين كانوا ينقلون

---

(1) Carte de la Barbarie de la Nigritie et de la Guinee par Guillaume de Isle de l'academie royale des sciences.

(2) A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London, 1810, p. 2.

(3) Norris. 1967. Sanhaja Scholars *of Timbuctoo.639-640.*

(4) A Selection of Curious rare and Early Voyages and Discoveries of the English Nation, vol 3, London 1810, 2.

الأملاح جنوبًا علىٰ ألواح علىٰ ظهور الجمال. وكان هذا النشاط مدرًا للدخل ولكنّه كان مضنيًا، بل ومهلكًا، وقد مات فيه الكثيرون بفعل صعوبات المناخ والارتحال. ولربما لم يُشجِّع عليه إلاّ غلاء الملح في السودان. وكان الاعتقاد السائد هو أن الحياة في السودان مرهونة باستهلاك الأملاح، وأن المناخ السوداني وتعادل الليل والنهار فيه وحرارته يجعل الدم يتخثّر في جسم الإنسان، ما يؤدِّي إلىٰ وفاته؛ وأن الملح هو الحلّ الوحيد لهذا المرض. وهكذا كانت حركة الإبل التي يحمل كل منها لوحَيْن من الملح تشاهد قافلة دومًا من تغازة إلىٰ السودان[١].

❁ ❁ ❁

استنتج الباحث جيمس ويب أن آدرار كانت تقع في هذه الفترة في منطقة ساحلية[٢]، ولكن حالة الخصوبة التي تحدّثنا عنها أعلاه لم تكن عامة خصوصًا في جنوب آدرار. فقد كان الجفاف يتسارع في عام ١٤٥٥. وفي نواحٍ كثيرة كانت الوضعية المعيشية أقلّ ازدهارًا مما وصفه ملتشيور پيتوني؛ ذلك أنّ أسراب الجراد كانت تأتي علىٰ المناطق الخضراء كلّ ثلاث سنوات[٣]. أما المناطق المجدبة فكانت غالبة مع ندرة في المياه وخصوصًا في القرىٰ البدوية. ففيما كان سكان المدن يستقرّون في بيوتهم، فإن البدو كانوا يترحّلون في خيامهم المعدّة من الصوف والوبر بحثًا عن الماء النادر دومًا[٤]. وقد شاهد كادامستو، الذي ترّحل علىٰ الإبل مسيرة ستة أيام من آرغين إلىٰ ودان، أن نمطهم الغذائي كان يقتصر علىٰ التمر واللبن. وبدا أن ثّمة نقصًا في القطعان والغنم بسبب الجفاف، وهو الأمر الذي كانت تعوِّضه تربية الإبل، التي تتحمّل الجفاف وتساعد علىٰ الترحال المستمر إضافة إلىٰ توفيرها للألبان. وقد اعتقد كادامستو، القادم من خلفية ثقافية بعيدة عن الحياة الرعوية الصحراوية، أن سبب مواظبة الصنهاجيين في ودان

(1) Ca'da Mosto, 54.

(2) Webb, Desert Frontier, 7.

(3) Ca'da Mosto, 60.

(4) Fernandes, 73.

علىٰ شرب اللبن كان بسبب عدم توفّر الخمور[١]!

وفي الجنوب إلىٰ منطقة ولاتة والحوض كانت الوضعية أيضًا مشابهة، فقد تحدّث رحالة آخر عن القبائل البدوية خارج المدن التي كانت «بلا خبز وبلا فواكه وبلا سَمن، ولم تكن تتغذّىٰ إلا علىٰ لبن الإبل»؛ وكانت هذه القبائل هي تحديدًا البرابيش والودايا، التي كانت في حينه تسيطِرُ علىٰ مناطق واسعة من الغرب إلىٰ الشرق[٢]. أما حياة الصنهاجيين القاطنين في الفيافي والقفار، فقد كانت في جحيم من غياب الموارد واضطهاد الغزاة العرب والجوع[٣]. بل إن الحالة ستصل إلىٰ اضطرار الصنهاجيين في جبل الجل إلىٰ أكل الحمير[٤]، أما في جبل بافور في وديان آدرار فقد اضطرّوا إلىٰ التقاتل والاقتيات علىٰ الجثث[٥]. وفي مناطق كبيرة وعريضة من مجال البيضان كانت الملابس أمرًا نادرًا؛ إذ كان الرجال والنساء يخصِفون قطعًا صغيرة من القطن أو الجلود يسترون بها عوراتهم[٦]. ورغم أن الرحالة الذي نقل هذه المعلومات لم يتحدّثْ عن هذه الحوادث باعتبارها أحداثًا، وإنّما باعتبارها عادات، ما يدلّ علىٰ ديمومة حالة الندرة؛ إلا أن إقبال سكان الصحراء علىٰ الملابس البرتغالية كان دليلًا علىٰ استعداد قوي لتغيير هذه «العادات».

وربما لم يكن فقراء الصحراء ومحروموها غير ضحايا التفاوت في الثروات، وهو ما جعلهم في «بؤس وفقر مدقع»[٧]. وفي المقابل، نمت في الصحراء «برجوازية» تجارية صغيرة معتالة علىٰ تسيير القوافل والمقايضة ذهابًا وإيابًا، ونمت معها «أرستقراطية» عسكرية تعتمد قوتها من أجل الكسب. أما من لم

---

(1) Ca'da Mosto, 47.

(2) Fernandes, 71.

(٣) نفسه، ص ٧٣.

(٤) نفسه، ص ٧٧.

(٥) نفسه، ص ٨٣.

(٦) نفسه، ص ٩٣.

(٧) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ج ١ ص ٦١.

ينخرط في هاتين التشكيلتيْن، فقد وقع في أسفل المجتمع الصحراوي. وبرغم ما يقال عن التكافل الاجتماعي في الصحراء، فإن التفاوت الطبقي والفئوي كان أمرًا مشاهدًا، ليس فقط بين **الكصور** والبوادي بل وأيضًا بين الفرقاء من الشرائح والإثنيات المختلفة كما بين سكان التجمُّع الواحد[١]. فقد لاحظ فرناندس في زيارتِه لآدرار مطلعَ القرن السابع عشر تمايزًا بين العرب والصنهاجيين الملحقين؛ فبينما كان الأخيرون يلبسون جلود الماشية فإن الأوّلِين كانوا يستأثرون بالثياب الصوفية وبالقماش الغيني، الذي كانوا يسلبونه من لابسيه. وقد تحدّث عن ندرة الملابس عمومًا[٢]. وسيستمر الغالبية من البيضان في لبس جلود الماشية بما يكفي بالكاد لستر عوراتهم حتىٰ بعد هذا بفترة؛ ففي أواخر القرن السابع عشر سينقل لا كورب، الفرنسي الذي استقّر في المنطقة النهرية وعبر إلىٰ مجال البيضان، الصورة نفسها عن عشرات البيضان الذين وصفهم وهو يتأمل في شعورهم المنفوشة بأنهم «كالمتوحشين»، الذين أتوا إلىٰ جنوب الترارزة للمتاجرة بالصمغ[٣]. وربما كان نفش الشعر وطرق اللبس تقاليد ثقافية أكثر مما كان حالة من الندرة بدليل الاختلاف بين العرب والصنهاجيين في الملابس في هذه الفترة، وبسبب أن العراة لم يكونوا دومًا معدمين؛ إذ كانوا يأتون بصفتهم تجارًا أو مواكبين للتجار في القرن السابع عشر، حسب ما يمكن فهمه من لاكورب. وربما كان الأمر يتعلّق بتقنين ثقافي صنهاجي لحالة الندرة.

لم يكن فقراء الصّحراء عزوفين عن الحياة كفقراء الهند، بل كانوا يلجأون إلىٰ عدّة أساليب للكسب. وفي أحيان كثيرة لم تكن هذه الأساليب نزيهة. وقد وصفهم كاداموستو بالمحتالين وبالكذابين. وكان يسود بين بعضهم تبجيل كبير وتملّق للأغنياء، رغم أنه لم يكن ثمّة أسياد بالمعنىٰ الإقطاعي الذي كان يعرفه كاداموستو في البرتغال. ولكن أغنياء الصحراء فازوا بنوع من المكانة والتفضيل نتيجة ثرائهم، ولعلّهم استطاعوا بهذا خلق تبعيات لهم في أوساط الفقراء. وفي

(1) Ca'da Mosto, 50, 59.

(2) Fernandes, 73.

(3) Michel Jajolet de la Courbe, *Premier Voyage du sieur de la Courbe fait à la coste d'afrique en 1685.* Publié par P. Cultru, Paris: 1913., 151

مدن الصنهاجيين كانت صور الفقراء تتراءىٰ لكاداموستو في شكل بيضان «نحيلين بقامات متوسطة، ويقودون خيولهم الضعيفة من أكتافِها علىٰ طريقة الألمان باستثناء أن خيولهم كانت سوداء، وكانوا يدهنونها دومًا بشحم الأسماك الذي كانت رائحته كريهة إلىٰ حدٍّ لا يمكن تصوّره»[1].

❁ ❁ ❁

وفيما عدا هذه الصورة، **الفيكتورية** أحيانًا، للفقراء في الكصور -وفي خارجها حيث قال كاداموستو إنه لم يوجد أسياد أو إقطاعيون- فإن كثيرًا منهم كانوا ينخرطون في قطاعات إنتاجية مغايرة، فبعيدًا إلىٰ جهة المحيط كانت مجموعات مختلفة عرقيًا تعمل في صيد الأسماك وقد عرفت لدىٰ المحليين والبرتغاليين بالـ«**شرمية**» أو السماكين (مشتقة من **الشرم** التي كانت تعني بالأزناكَية (التصنهجيت) السمك). كان **الشرمية** يتمايزون عن بقية الصنهاجيين، ليس لغويًا وربما ليس ثقافيًا، وإنما في الأغلب علىٰ أساس إنتاجي. وربما كانوا بقية من القمنوريين الذين سكنوا غير بعيد من المحيط واندمجوا في الثقافة والهوية الصنهاجية دون أن يتمّ الرفع من شأنهم، بل كانوا محتقرين يضطهدهم الغالبون ويُذلّونهم، وكانوا -بحسب ما أبلغ به فرناندس- يعتبرونهم أحفادًا لليهود. وعلىٰ العموم، فقد انتشرَت مجتمعات الصيادين هذه علىٰ طول الساحل من آرغين إلىٰ السنغال ولكن غالبيّتهم كانت تعيشُ في فاقة مدقعة، بحيث كانوا ينحصرون في أكواخ متقاربة علىٰ الشاطئ. وكانوا يشاهدون متدثِّرين بجلود الماشية يخصفونها علىٰ عوراتِم. بيد أن التراتبية لم تغب من بينِهم؛ ذلك أن بعضًا منهم كان يلبس الأكسية البرتغالية alquices التي كان التجار يستوردونها من الجزيرة الإيبرية. وربما تاجروا بأنفسِهم مع المقايضين البرتغال. أما معيشتهم فقد انحصرت في السمك أو السلاحف المشوية والخالية من محفِّزات غذائية أخرىٰ من الخضار أو الأملاح، بحسب تشديد الرحالة الإيطالي. ونادرًا ما كانوا يحصلون علىٰ

(1) Ca'da Mosto, 50, 59.

لحوم الإبل[1]. وبالنسبة إلىٰ فرناندس فقد شدّدَ أنه برغم أنهم كانوا بيضًا، إلا أن نمط تغذيتهم جعلهم «قبيحين ومثيرين للاشمئزاز. وكانت تفوح منهم روائح التيوس؛ لأنهم كانوا يدهنون أجسامهم وشعورهم بشحم الأسماك»[2].

❁ ❁ ❁

وبالنظر إلىٰ طبيعة الأرض الخصبة في هذه الفترة وتعدّد الغابات في الجوار، فإن كثيرًا من سكان الصحراء كانوا ينخرطون في أنشطة الصيد البري، التي كانت أكثر شرفًا وقبولًا في المجتمع من أنشطة الصيد البحري الشرمية، بل كانت -كما تدل علىٰ ذلك ارتباطاتها اللاحقة- ميدانًا للفروسية والبطولة. في هذه الفترة من حياة الصحراء عاشت مجموعة «**اللاوبىٰ**» أو الصيادين البريين السود في الضفة اليمنىٰ واليسرىٰ للنهر، وكانت مجموعة متمرسة في صيد الفيلة والأسود. في منتصف القرن الخامس عشر كان عمق المجال «الموريتاني» مرتعًا خصبًا لحياة برية مزدهرة، حيث تحدّث زائر عن الأسود والضباع والنعام الوافرة حتىٰ ودان[3]. وكانت هذه الوحوش علىٰ احتكاك دائم بالحياة الأهلية والمضاربية؛ فيذكر لنا أحد أوائل النسابة البيضان، وهو والد بن خالنا (ت ١٧٩٨)، أن أحمد الألفغي، الذي ربما عاش في القرن السادس عشر أو السابع عشر، قد سقط ضحية افتراس لبوة عند بئر ين يئظ[4]. ويدلُّ حضور هذه الوحوش في الأساطير الصحراوية وفلكلورها في هذه الفترة علىٰ حضورِها ومشايعتها للتحولات التأسيسية. وتتحدّث أسطورة هجرة يدبيال التشمشي، الجدّ الجامع لمجموعة ايداتشفاغة، عن سفره علىٰ ظهر فيل من آدرار إلىٰ تيرس وأرض الگبلة[5]. وقد أسفر التلاقي مع الحياة البرية عن وجود صيادين من العرب والصنهاجيين المتمرسين الذين كانوا يخرجون دومًا في صيد «الغزال وحمر

---

(1) Fernandes, 55, 59, 73.

(٢) نفسه، ص ٥٩-٦١.

(٣) نفسه، ص ٤٨.

(٤) والد بن خالنا، ورقة غير معنونة عن أنساب أولاد ديمان ومن لحق بهم، نسخة أحمد سالم ولد باكَاه، مخطوط، ص ٨١.

(٥) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٨٠.

الوحش والنعام واللمت وغيرها من الوحش»، حسب ما يُخبِرنا به ليون الإفريقي[١]. ويتحدّث نسابة أولاد ديمان عن رجل من هؤلاء ومن أشراف الديمانيين «كان مولعًا بالصيد» اسمه علي سبْرّل[٢].

ولم يكن الصيد مجرد تسلية لأبطال البيضان والسودان، بل كان وسيلة حياة وربما تطور إلىٰ إتاحة نشوء قبائل إنتاجية شتّىٰ معتمدة علىٰ الصيد كمجموعات النمادي التي ذكرها أحمد بن الأمين (ت ١٩١٣)، صاحب **الوسيط في أدباء شنقيط**، والتي كانت تعيش بين «تيشيت وآوكار وتگانت وأدافر حيث تكثر الوحوش»، والذين لم يكونوا «يملكون غير الكلاب وليس لهم إلا لحوم الوحش ولباسهم جلودها»[٣]. كان الصيد أيضًا تجارة يأتي أبطالها، أو من يشتري من عندهم، بالطرائد ومشتقاتها كجلود الغزلان وبيض النعام إلىٰ آرغين، كما عاين ذلك فرناندس[٤]. وقبل فرناندس بحوالي نصف قرن كان كاداموستو قد طعم من بيض النعام الذي حصّله الصيادون البيضان واعتبره شهيًا. ولقد صيغت عادات صيد الغزلان في البراري ومطاردة النعام ورعي الماشية من تقاليد وفولكلور البيضان في المجال، ولكنها في القرن السادس عشر بدأت تأخذ مدًا متزايدًا بفعل التجارة المركنتالية البحرية. مع القرن السابع عشر سيتحدّث لاكورب عن الصيادين البيضان الذين كانوا يبرعون في صيد النمور والفهود والنعام، ويبيعون جلودها وريشها في المحطات التجارية التي يقدم إليها الفرنسيون والسودان جنوب الترارزة والبراكنة[٥].

❁ ❁ ❁

في المقابل، كان أغنياء الصحراء وتجارها في وضعية مريحة بالمقارنة. ويبدو من الوثائق التي عندنا عن هذه الفترة أن الثراء كان من شأن الزعماء السياسيين

---

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ج ١ ص ٦٢.

(٢) والد بن خالنا، مخطوط، ص ٢.

(٣) الشنقيطي، الوسيط، ص ٤٦٦.

(4) Fernandes, 61.

(5) De la Courbe, p147.

الذين أمّنَت لهم حمايتُهم للتجارة أو قيادتُهم للمقاتلين رأسَ المال والفرصَ الاستثرائيّة. ويبدو أنّ هؤلاء كانوا علىٰ استعداد للاستثمارِ بالغالي لحماية رجالاتِهم. فمثلًا تُخبِرُنا الوثائق البرتغالية في عام ١٥٤٩ أن أميرًا بيضانيًا عرض ألف بقرة علىٰ البرتغاليين مقابل حماية قومه، انيرزيكَ أو النارزيكَ، من القراصنة القشتاليين[١]. أما النوعيّة الثانية من الأغنياء فكانت التُجار. وقد ذكر والد بن خالنا رجلًا ثريًا نُخمِّنُ أنّه تاجر يدعىٰ «خير من لبىٰ» وصفه بأنّه «كان كثير المال»[٢]. ومن البديهي أن أموال هؤلاء كانت تنتقِل بالمواريث وتتنمّىٰ بالتجارة. وتُحيل **نوازل ابن الأعمش** الشنقيطي في وقت مبكِّر، ربّما كان في منتصف القرن السابع عشر، إلىٰ بعضِ هؤلاء الأثرياء عندما تتحدّث عن «أخوين بينهما في الشفقة والمودة والمسامحة ما منعهُما من قسمة ما بينهما من مواريث بغير من وجوه في السبب، حتّىٰ إن أحدهما يستحي من أن يقول هذا لي ولو كان هو الذي خالَهُ وحصّله»[٣]. ونعرِفُ من النازلة نفسها أن هذين الثريّيْن كانا يعيلان أسرتيْهما من تجارتهما القوافليّة (العير) ويُسيِّران مزرعتيْهما، وكان لهما عبيد ومساكن. «وكُلٌّ منهما في مسكن وله عبيد وحرث وإبلٌ كلّها أو جلُّها في الصدقات يميران عليهما أهلهما، وعند قدوم العير يُنيخ كلٌّ منهما أباعر عنده علىٰ قدر عياله ومؤونة تعلُقاتِه»[٤]. ولعلّ اختلاط أموال هؤلاء التجار الورثة دون تقسيمِها بالتركة قد سمحَ لهما بمراكمة رأس مال للتجارة القوافليّة، كما نستنتِج من وثيقة ابن الأعمش، الذي أفتىٰ، ردًا علىٰ استفتائه، أن الأخوين شريكان لكي تترتّب الزكاة علىٰ أنهما رأس مالين، بدلًا من أن يكونا رأس مالٍ واحد[٥].

نستنتِج من هذا أنّه كان لهؤلاء الأغنياء سمتُهم ومهابتُهم، ونعرِفُ من الحسن

---

(1) Francisco Freire, "The "Narziguas," the Forgotten Protagonists of the Saharan History, in Islamic Africa, Vol. 2, No. 1(Spring 2011), pp. 35- 65(pp. 42-43, p. 48).

(٢) والد بن خالنا، ص ٣٠.

(٣) الطالب بن محمد بن الأعمش العلوي، النوازل، نسخة مخطوطة من مكتبة أحمد بن محمد محمود القلاوي، ص ١٠.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه

الوزّان أنّهم كانوا يتميّزون عن الفقراء في اللبس وفي الحركات والسكنات منذ القرن السادس عشر. وعلىٰ العموم، فقد كانوا يلبسون دراعة قصيرة عبارة عن «قميص طويل عريض الأكمام من القطن الأزرق»، كانوا يُحصِّلونها من التجارة القادمة من السودان الإفريقي وكانوا يتعمّمون بألثمة مميّزة. ورغم شحّ الموارد، إلاّ أنهم كانوا كرماء بشكل ملحوظ[١]. ونتيجةً لهذا، كان فقراء الصحراء يجلّونهم بشكل ملحوظ، وكانوا «كأيّ أغنياء في أي مكان آخر يسوون أكثر من الفقراء ويقدرون علىٰ ما هو أكثر منهم» بتعبير شاهد عيان معاصر[٢]. قبل المرابطين كانت سيادة الصحراء تعود إلىٰ الطبقة المتاجرة من أوداغست، ثم فجأة تم التظليل علىٰ هذه الطبقة بسيطرة المجموعات المرابطية ثم الحسانية المحاربة، ولكن القرون اللاحقة شهدت انسحاب الأرستقراطية البدوية المقاتلة وحتىٰ رجالات الدِّين لصالح الحركة التجارية العتيقة، التي عادت مرة أخرىٰ للبروز بصفتها أهمّ معلم اجتماعي وطبقي في الصحراء. وبرغم غياب هؤلاء التجار من التواريخ النَّسَبية والملحمية، إلاّ أنّ دورهم في توحيد الثقافة الصحراوية وصهرها في بوتقة واحدة كان أساسيًا. فقد كانوا -بأسفارهم التجارية شمالًا وجنوبًا ومراقبتِهم واستفادتِهم من كلّ ما يصلح للتبادل- مَن اكتشف أهمية المصادر الصحراوية كالخيل والأملاح والعبيد والصمغ، وبفعل هذا أقاموا حوارًا مصلحيًا مع التجارة المركنتالية الأوروبية الوليدة علىٰ مشارف المحيط الأطلسي.

❁ ❁ ❁

لقد نظر كثيرون إلىٰ الصحراء علىٰ أنها مكان منعزلٌ عن ثقافة العالم من حوله، وأنها انقطاعٌ وانكفاءٌ وجمودٌ، فقد جزم ليون الإفريقي في بداية القرن السادس عشر أن حياة أهلها كانت دومًا «بالطريقة نفسها ويعيش أفرادها من دون قاعدة أو منطق»[٣]. ولكن الواقع أنها كانت تتأثّرُ بالثقافة التجارية التي كانت تُغيّر

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ج ١ ص ٥٩-٦١.

(2) Ca'da Mosto, 59.

(٣) الحسن الوزان، ج١ ص ٥٧.

من عاداتها ورفاهيتها باستمرار؛ فالمواد القادمة من الجنوب كانت تنتج فئاتٍ وأنماطًا استهلاكية جديدة وآليات جديدة للاكتساب، وتحقِّقُ -بفعل امتلاكها من عدمه- تراتبية مجتمعية، وتدخل آليات غير معهودة في الثقافة المحلية. وكان من الواضح أنه كان للحاجيات الجديدة العابرة للبحار دورٌ في تحديد نوعية المواد المتاجر بها، ولكن هذه المواد كانت تغيّر العلاقات والنظم في الصحراء أيضًا. وكان في قمّتها، إضافة إلىٰ الملابس والأغذية، الحاجيات المنزلية كالسجاد والأواني المطبخية كالطشت القادم من الشمال. وقد فتح هذا شهيات سكان الصحراء لطلب المواد الغذائية التي لم تكن متوفرة عندهم، فكان التجار البرتغاليون يأتون بالقمح الذي كان يباع مقابل المثاقيل من الذهب وبالعسل والزعفران والفلفل والزنجبيل، وقد أتاحت هذه العلاقات التجارية مع القادمين من إيبرية تغيير العادات الغذائية الصحراوية.

❁ ❁ ❁

ولا شكّ أن هذه المواد غيّرت أيضًا من الترتيبات الجنوسية، وخصوصًا في تقعيد احتياجات المرأة. فتعكس لنا هذه التجارة حظوة المرأة عند رجال الصّحراء منذ القرن الخامس عشر؛ ذلك أنّه كان للحاجيات النسوية نسبة كبيرة في التجارة البرتغالية، وخصوصًا الحلي كالعقيق الأحمر والمرجان والفضة التي جزم الرحالة فرناندس أنها كانت أكثر قيمة عند البيضان من الذهب[1]. ونعرف من تقاليد القرن التاسع عشر أن البيضانيات كنّ يتزيّن بالخلخال الفضي الغليظ في الكعبَين. ورغم أن كاداموستو جزم أن المرأة البيضانية الصنهاجية لم تكن تختلف عن الرجال في الزي، خصوصًا في المدن التجارية إذْ كان الاثنان يلبسان «**الحايك**» أو **الشيزل** كما سماه الرحالة التاجر[2]، إلا أن الأدلّة والشواهد فيما بعده تُحيل إلىٰ تمييز جنوسي في الثوب وإلىٰ عناية الصحراء باستيراد الملابس النسوية واستيفادِها من المنافذ التجارية في المغرب ومن المشارِف البرتغالية علىٰ الساحل. ففي منتصف القرن الخامس عشر كانت النسوة البيضانيات يلبسن **الجيريكين** الأوروبي

(1) Fernandes, 61.

(2) Ca'da Mosto, 59.

أو الـ gonelle الذي كان الزي التقليدي للمرأة المحتشمة في أوروبا الوسيطة، وهو عباءة ذات حجاب رأسي يشبه «**الملاحف**» (زيّ المرأة البيضانية في الفترات التاريخية اللاحقة). ولكن هذه «**الملحفة**» لم تكن ثوبًا عامًا في هذه الفترة المبكِّرة، بل تعايشت مع أنماط لبس نسوية أخرىٰ أعّم منها؛ فكان يذيع مثلًا نوع من **الحايك** المتمثِّل في رداء من القماش يغطي الجسم كافة ما عدا الرأس والرقبة والرجلين، ويمتدُّ خمسة أمتار في مترين. وفي القرن الخامس عشر كانت ألوان هذا الزي بيضاء وحواشيه حمراء[١]. وبدوره أيضًا، فإن هذا الزيّ كان ترفًا في العائلات الغنية. أما في الأعمّ فلعلّ الحالة كانت عدم تستّرِ المرأة البيضانية، كما يُخبِرُنا لاكورب في القرن السابع عشر، الذي لاحظ أنها كانت في أحيان كثيرة تلبس تنورة محيطة بالخصر ولم تكن معقودة إلا من أعلىٰ الخصر؛ ولذا فكان ساقها وفخذها ينكشفان دومًا مع أبسط حركة[٢]. وهو معطىٰ يتفق معه شيئًا ما عابرو المجال في القرن الخامس عشر ككاداموستو نفسه، الذي ذكر أن النساء البيضانيات كنّ دومًا حاسرات الطرف[٣]، فيما يبدو استمرارًا للعادات الصنهاجية المتحررة التي رآها ابن بطوطة في ولاتة قبل أكثر من قرن، وأكدها لاكورب بعد قرابة قرنين. بل إننا نلاحظ من المصادر الفوتوغرافية الغربية في القرن التاسع عشر أن كشف المرأة الصحراوية لجوانب «حساسة» من جسدها، كأعلىٰ صدرها، وحتّىٰ ثدييْها مثلًا، كان أمرًا طبيعيًا.

وفي مقابل إنفاق الرجال علىٰ النساء كان الجمال النسوي يأتي استجابة للرغبات الرجولية. وهنا توجد أولىٰ الإشارات إلىٰ الذوق الصنهاجي الصحراوي للمرأة، فكان بيضان هذا العصر يفضِّلون المرأة البدينة، وخصوصًا عندما تكون كبيرة النهدين. وقد راجت في هذا الإطار تقاليد تسمين المرأة التي ستعرفها الأجيال اللاحقة باسم «**لبلوح**». فكان من أدوار النساء المربيات إعداد بنات كبيرات الأرداف والنهود، وكان جزء من تربيتهن لهن تسمينهن عندما يبلغن سن السابعة عشرة. ولم تكن أهمية التسمين تسقط عن المرأة إلا بعد جنينها الأول؛

---

(١) نفسه، ص ٤٧، ٥٩.

(2) De la Courbe, 151.

(3) Ca'da Mosto, 47, 59.

لذا كن دومًا يرجعن لحالة نحافتهن الأولىٰ[١]. ولعلّ هذا النمط الجمالي كان سائدًا في عرض الصحراء وحتّىٰ في المناطق المدنية العربية-البربرية، كما تنبئنا المصادر في منطقة الصحراء الجزائرية والمغربية؛ إذ يتحدّث عنه أبو العباس الونشريسي (ت ١٥٠٩)، المعاصر لليون الإفريقي، في كتابه **المعيار المعرب**. ويقول لنا الإفريقي، الذي عرف صحراءنا معايَنَةً، مطلقًا حكمًا عامًا عن المنطقة الأوسع: «ونساؤهم ممتلئات لحمًا وشحمًا، ولكنهن غير شديدات البياض، أردافهن غليظة سمينة، ونهودهن بارزة، بيد أن خصورهن في غاية الرقة، ويتحدّثن بطرافة»[٢].

ورغم أن الزواج كان سهلًا خصوصًا في القطاعات الفقيرة، التي كان النساء يتميزن فيها بحالة من العري، إلا أن العلاقة غير الزواجية كانت أيضًا سهلة. وإذا صدّقنا فرناندس، فقد كانت تذيع في المجال حالة من سهولة الاختلاط الجنسي[٣]. ويتفِقُ ليون الإفريقي علىٰ الأقل فيما يتعلّق بذيوع المصافحة والتقبيل بين الرجل والمرأة؛ إذْ يؤكّد أن النساء كن «يمددن أيديهن عن طيب خاطر، وقد يسمحن للرجال بلثمهن»[٤]. وقد جزم فرناندس أن الخيانة الزوجية كانت أمرًا شائعا في مجتمع البيضان في القرن السادس عشر. ولكنها انتهاكات لم تكن تَمُرُّ دومًا، إذا انتُبِه لها، بلا عقاب؛ فكانت «**جرائم الشرف**» مشاهدة عندما كان أقارب المرأة يقتلون من ضاجعها دون زواج[٥]. أما ليون الإفريقي الذي كان يتحدّث بشكل عام عن سكان الصحراء الليبية، فقد قال بأنه كان يمكن تقبيل المرأة عمومًا ولمسها، ولكنه حذّر من أن «تعدي ذلك الحد الخطير يؤدّي إلىٰ اقتتال الرجال بضراوة متناهية، فهم في ذلك أعقل من بعضنا ولا يقبلون الخدعة في أعراضهم بأي ثمن»[٦].

❁ ❁ ❁

---

(١) نفسه، ص ٥١.

(٢) الحسن الوزان، ج ١ ص ٥٩.

(3) Fernandes, 93, 95.

(٤) الحسن الوزان، ج ١ ص ٥٩.

(5) Fernandes, 93, 95.

(٦) الحسن بالوزان، ج ١ ص ٥٩-٦٠.

أما مظاهر الرجال فلعها كانت تتّبع قانونًا أبسط، وكانت تخضع لأعراف مختلفة. وقد ميّزَ كادا موستو بين ألوانهم وألوان النساء، فبينما أشار إلىٰ النسوة بأنهن كن داكنات البشرة[١]، (وهو الشيء نفسه تقريبًا الذي لاحظه زائر بعد أكثر من قرن ونصف عندما قال إن ألوانهن زيتية[٢]، وقال الإفريقي إن ألوانهن لم تكن شديدة البياض[٣])، فإنه -أي كادا‌موستو- وصفَ الرجال بأنهم كانوا سمرًا[٤]. ولعلّ حليتهم أو طقسهم الأبرز كان اللثام، الذي كاد يكون ظاهرة لا تاريخيّة منذ القرن الثامن. في القرن السادس عشر كانوا ما زالوا يتلثمون علىٰ الطريقة الصنهاجية نفسها في إسبانيا وفي المغرب، وكانوا يبرِّرون تلثُّمَهم بأن الفم نجس وأنه بخَر (كريه الرائحة)؛ لذا يجب دومًا تغطيته[٥]. ورغم أن هذا لم يكن يشرح سفور النساء، إلا أنه ربما كان يعكس تطور التبرير الثقافي للعادات القديمة التي أسّست لثقافة اللثام.

❁ ❁ ❁

لعل أهم ملمح لحياة الصحراويين في فترة القرنين الخامس عشر والسادس عشر المتميّزة بازدهار الطبقة التجارية، كان تضعضع المجموعات العلمية، أو علىٰ الأدّق تلك الموصوفة في الأساطير بأنها علمية. رغم ما توحي به الآثار التي لدينا من العهد المرابطي من أن طبقة المتعلمين الدينيين كانت قديمًا من أغنياء الصحراء، وكانت لها الأفضلية في المغانم والقضاء والحكم؛ إلا أنها -كغيرها من ورثة المجال المرابطي- قد بدأت تفقد قيمتها الاجتماعية في القرن الخامس عشر وبدأت تهاجر من آدرار، مركز الكصور والمدن والبلدات، إلىٰ أرض الگبلة، الواقعة غربًا إلىٰ جهة الساحل؛ ومن منطقة ولاتة إلىٰ تمبكتو، والعكس بالعكس. ولسوء الحظ ليس لدينا في استباط الشق المتعلّق بالهجرة من آدرار إلىٰ أرض الكَبلة غير الروايات التأسيسية، التي كما نعلم لم يكن غرضها

(1) Ca'da Mosto, 49.

(2) De la Courbe , 151.

(٣) الحسن الوزان، ج ١ ص ٥٩.

(4) De la Courbe, 151.

(5) Ca'da Mosto, 47, 50.

الأول تسجيل الماضي وإنّما تخيُّله. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الروايات تقول لنا إن هذه الفترة شهدت هجرة التشمشيين الأوائل، وعلىٰ رأسهم إيدبييج أو إيدبيال يعقوب، الذي ستنتسب إليه قبيلة إيداتشفاغ في أرض الگبلة، فحزم حقائبه وغادر من الشمال إلىٰ آدرار ولكنه وجده غير مناسب للعلم، فغادر بأسرته إلىٰ تيريس حيث تزاوج بين المجالسة وعاش فيهم[١]. ولقد علقت حادثة الرحلة طويلًا في أذهان أحفاد إيدابيال وتمت أسطرتها، بحيث سيقال إن الله سخّر له فيلًا بسرجه لدىٰ خروجه من آدرار فحمله إلىٰ تيريس[٢]. ثم تبعه محنض أمغر أو محمد أمغار، الذي سينتسِبُ له معظم قبيلة أولاد ديمان. ومثل سلفه فقد ذهب إلىٰ أرض الگبلة التي أصبحت في هذا القرن -القرن السادس عشر- «أرضًا مقدسة بالنسبة إلىٰ العلماء البربر»، بتعبير الباحث البريطاني نوريس[٣]. وتزامن هذا مع قدوم يدمس أحد أجداد تشمشة، ثم يداج أكَد برغة الذي ستتفرّع منه قبيلة إيداوداج، ثم أبهضنام جد بني يعقوب، ثم إيدابياج. وقد نجمت من هذا التحول الاجتماعي زيجات بين الوافدين والمُقيمين نتج عنها تشكيل جديد لمجموعة تشمشة، وقد خرجوا كلهم «متفاوتين في الخروج»، كما يقول لنا مؤرِّخُ الزوايا بأرضِ الگبلة، اليدالي[٤]. ويُخبِرُنا نسابة أرض الكَبلة الأوائل عن استقدام هؤلاء إلىٰ الأرض الجديدة بالعلوم الجديدة، كما كان شأن محمد سعيد بن تكد، الذي كان «أوّل من جلبَ علم النحو إلىٰ القبلة»[٥].

❁ ❁ ❁

وربما لم تكن هجرة بعض المجموعات الصنهاجية وانزياح بعض القبائل المتحاربة جنوبًا إلا معلمًا من تحوّلات أزمة التجارة أو اكتشافها لمواطِن جديدة. فسرعان ما أفضت حياة المدن إلىٰ تضعضع، وأحيانًا إلىٰ أفول، مع منتصف أو آخر القرن السادس عشر فما بعده. وإذا كانت المجموعات الموصوفة بالعلمية

(١) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٨٠.

(٢) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٨٠-٨١.

(3) Norris, *Znaga Islam*, 498.

(٤) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٧٨-٨٢.

(٥) والد بن خالنا، ص ٢.

قد بدأت تهاجر تباعًا، فإن الأمر لم يكن مقصورًا عليها. ولم تكن الهجرات العلمية سبب خراب المدن، بل ربما كانت نتيجةً له؛ ففي مرحلة ما يتحدّث اليدالي عن اشتعال الحروب الأهلية في آدرار باعتبارها سببًا لمغادرة الكثيرين[١]. وقد قدمت مجموعات محاربة جديدة وتوطّدَت في وسط آدرار وفرضت فيه نفسها بالقوة. فتَذكُر لنا مصادر القرن السادس عشر عن قدوم البرابيش، الذين كانوا غالبًا رعاة إبل وملاكها، إلىٰ تيشيت التي أصبحوا حُكامها، وأصبحت إبلهم وخيلهم ترعىٰ فيها. أما في جنوب آدرار فما وراءه في الفترة نفسها في المنطقة الممتدة بين ولاتة وودان، فقد سيطرت قبائل الودايا، التي كانت تتكون من عشرات الآلاف من المقاتلين، علىٰ القبائل السودانية التي كانت تسكن هنالك. وكانت مجموعات الرحامنة (أولاد رحمون) أيضًا قد أصبحت تحوم في المجال فارضة اقتصادها المغارمي[٢]. ومن الأرجح أن سيطرة قبائل المعقل (القبائل الحسانية المُحارِبة) كان نسبيًا في هذه الفترة، لكن انزياحها المتدرِّج إلىٰ حومة البقاع المدنيّة الآدرارية والبطاح بتيريس كان سببًا في تغيير الترتيبات المرتبطة بالمسالك التجارية، وأحيانًا في تضعضع التجارة عندما بدأت قوىٰ المعقل تتحكّم تدريجيًا في المسالك القوافليّة وتزاحم عليها.

إلا أنّه لا يبدو أن الأزمة الاقتصادية للمدن، أو علىٰ الأقّل التحوّلات الجغرافية والاقتصادية، كانت مرهونة حصرًا بالمعقل؛ إذْ كان أحد أسبابِها المهمة تراجع تجارة العبيد مع البرتغاليين. وبالطريقة نفسها لم تعد تجارة الخيل تزدهر كما كانت[٣]. كما أن موانئ جديدة، وخصوصًا في منطقة السنغامبيا، بدأت تظهر وتنافس ميناء آرغين، حيث كانت تتنفّس الطبقة التجارية. ومع ذلك، كان الاختراق المعقلي مؤّثرًا، ولربما يمكن ربطه بعدمِ أمان القوافل في هذه الفترة

---

(١) اليدالي، شيم الزوايا...، ص ٨٠.

(2) Jaques-Meunié. Le Maroc saharien: des origines à 1670. Librairie Klincksieck vol 2, 1982, , 572. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ١ ص ٥٤.

(٣) لا نمتلك مصادر عن تجارة الخيل في القرن السادس عشر، وربما كان الأمر يتعلق بأفول التجارة، كما أن الفترة تشهد دخولًا لحسان.

الذي تتحدّث عنه المصادر المُعاصِرة[١]. وما نعرِفُه هو أنّ جزءًا كبيرًا من عدم الأمان هذا عادَ إلىٰ حملات وهجمات الودايا والبرابيش والرحامنة، الذين قدموا إلىٰ المدن في بداية القرن السادس عشر وبدأوا يفرضون نفوذهم علىٰ قوافل الذهب والأملاح علىٰ طول المسالك التي ربطت السوس بالسودان، والتي كانت تمرّ عبر تيشيت وودان والجل[٢]. بيدَ أنّ هؤلاء المعقليين لم يكونوا مجرّد غزاة رغم سيطرتهم علىٰ جنوب المغرب؛ ذلك أنّهم بدأوا في القرن السادس عشر يدخلون في تجارة الأملاح المنقولة ما بين الجل وتيشيت والحوض[٣]. وربما ضايق هذا المجموعات التجارية المقيمة علىٰ الخطوط القوافلية، خصوصًا أنه بعد الغزو السعدي لتمبكتو في عام ١٥٩١ ضعف الخط التجاري الشرقي واستعاد الخط الغربي القديم نشاطه، كما يرجِّح المؤرخ عبد الودود ولد الشيخ[٤].

يبدو إذن أن دخول الوافدين والمنافسين الجدد أنتَجَ مزاحمة علىٰ المصادر. وفوق كل هذا، فقد تزامنت معه خلخلة ديمغرافية واجتماعية وظيفية عندما بدأت الطبقة المحاربة الجديدة تنفذ إلىٰ المجال، ولعلّها احتكت بالمحاربين وحماة الحمىٰ الأقدم. وكان واضحًا في القرن السادس عشر أن الصفة العامة هي إعادة تشكّل المجتمع المتمدن. ولم تحدُث إعادة التشكل هذه بهدوء، بل كانت مرارًا نتيجة قلاقل وحروب قوية، ربما بسبب الصراع علىٰ الموارد التي أصبحت شحيحة. ولقد حدث هذا بشكل سائد في معظم المدن كما كان شأنه في **خراب آبير**، أم المدن الصنهاجية.

في ودان بدأت الأزمة عندما حاول المغاربة السيطرة علىٰ المدينة في القرن

---

(١) وصف مليشيور التجارة في أرض المدن بأنها آمنة، ولكن ربما كانت الوضعية متقلقلة في الشمال؛ إذ تشير حادثة الشيخ الكنتي إلىٰ التعرض لقافلة، كما أن حديث ليون الإفريقي عن أن أولاد دليم كانوا يمارسون قطع الطرق في هذه الفترة ربما يكون قد انعكس علىٰ سير القوافل.

(2) Jaques-Meunié. Le Maroc saharien: des origines à 1670. Librairie Klincksieck vol 2, 1982, 572.

(٣) نفسه، ص ٨٧٤.

(4) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la societe maure precolonial (XI eme siècle -XIX eme siècle): essai sur quelques qspects du tribalisme. Tome I. Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, p. 69

السادس عشر[١]. إلاّ أن السبب الذي تذكر المصادر أنه أدىٰ إلىٰ تضعضع المدينة، كان سببًا أهليًا أكثر مما كان غزوًا خارجيًا. وقد حدث هذا في شكل صراع بين حَيّين مختلفين هما تَفرلة وتامغونة، اللذيْنِ كانا قبيلتين من مسوفة أو من السودان[٢]، وقد خضعا لإعادة تشكيل بعد التدفق الجنوبي للمهاجرين القادمين من الشمال. وقد أدّىٰ تمايزهما والاحتقان بينهما، ربما في القرن السابع عشر، إلىٰ حدٍّ تفجر معه الصراع الدّفين بسبب مشاكل بسيطة بين الأطفال، حسب الميثولوجيا. حسب المحكي عبر الأجيال، فإن الأمر بدأ بوجود ضفدع ينقُّ في غدير من المياه لبعض صبيان أحد الحيين، وكان نقيقه موضع فخر للصبيان وموضع غيرة من طرف الصبيان الآخرين؛ فقام الأخيرون باختطاف الضفدع ليلًا ووضعوه في غديرهم، ما سبّب مشكلة بين الفريقين في الصباح تدخل فيها الكبار؛ وانفجرت بموجبها حرب أهلية كانت بداية تفكك مجتمع ودان القديم. وغادرت مجموعة تفرلة مهاجرة خارج البلاد إلىٰ أرض الگبلة، حيث استقرّت في تيكَماطين التي كانت آنذاك تجمعًا مدنيًا أسّسه حامد فال بن رضوان فال، من أهل كَنار في القرن السابع عشر[٣].

وفي تنيگي فيما بعد منتصف القرن السادس عشر (يخمِّن وايتكومب أنه ربما كان ما بين ١٥٥٠ و١٦٢٥)[٤] كانت حرب الأجنحة قد أدّت إلىٰ انهيار ازدهار المجتمع الوافر الجكني عندما تفجّرت مشاكل سياسيّة بين الحيين، تعزوها المصادر دومًا إلىٰ قصة بسيطة شبيهة بقصة الضفدع الوداني. كانت تنيگي حاضرة علمية مزدهرة جدًّا بحيث إن الروايات تتحدّث عن تمرّس حتّىٰ عبيدها وجواريها في العلم وحفظ الآثار، إضافة إلىٰ ازدهارها التجاري الكبير. وربما بالغ فلكلور القبائل في أسطرة الصراع في تنيگي، ولكن يبدو منه أن الفخذين الأساسيّين،

---

(1) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la societe maure precolonial, 1, 70.

(٢) كما يجزم بذلك المختار بن حامدن في مقابلة مع جيمس ويب في نواكشوط بتاريخ ١٧ ديسمبر عام ١٩٨٠. Webb, Desert Fronier, 154.

(3) Webb, Desert Frontier, 30.

(4) Thomas Whitcomb. New Evidence on the Origins of the Kunta. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 38,No. 2(1975), pp . 410-411.

الكُواليل وإيدايشف، كانوا في تمايز عن بقية الجكنيين وأن أحقادًا استدامت بينهم. وحسب الرواية التي وصلت إلىٰ علم الشيخ سيديا باب (١٨٦٠-١٩٢٤) فإن حدثًا طائشًا سبّب الخراب وذلك عندما قرّر فتىٰ من أهل المدينة غلق زقاق للمارة برجليه شارطًا أن يمر الجميع من تحتهما؛ وعندما قام بمعاكسة فتاة مارّة وكسرَ ثنيتيها غضب خالها فجاء وضرب ساقَيْ الفتىٰ بالسيف وبترهما. وتلاحم الفريقان وانهارت المدينة العتيقة. ويرجح وايتكومب أن الأمر تعلق بصراع أجنحة داخل قبيلة صنهاجية بربرية، أدىٰ إلىٰ ظهور كنتة بصفتِها فصيلًا مستقلًا عن تجكانت[١].

ورغم شحّ المصادر في هذا الموضوع، إلا أن الأرجح أن الحياة في الصحراء كانت تمرّ بأزمات تتلّعق بمصادر الغذاء وبشحّ الموارد والكوارث البيئية إضافة إلىٰ الاحتراب[٢]، وتغير مسارات القوافل والجفاف والكثافة السكانية[٣]. وربما ساهمت أسباب أخرىٰ تتعلق بأزمة الموارد وخصوصًا نضوب الآبار وتعطّل عصب الحياة. وقد تفرّقت تجكانت في أنحاء المجال الموريتاني بحثًا عن مصادر جديدة. فهاجر الكَواليل إلىٰ الجنوب، وصعدت مجموعة إلىٰ المسارح الغنية في الشمال في تندوف وذهب طرف إلىٰ نواحي اركيز وتامشكط، في الجنوب الشرقي، وبدأوا فيها تأسيس تجمع حضري جديد هو تكَبة، في اركيز حيث ظلت حالة الاحتراب في الأطراف الجكنية مستمرّة حتىٰ هنالك[٤]. وتفرّعت مجموعات أخرىٰ، هي الوسرة وإيدلبة، وسلكت طريق ولاتة ونزلت بها. أما بقية المجموعة

---

(1) Thomas Whitcomb. New Evidence on the Origins of the Kunta. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 38,No. 2(1975), pp . 410-411.

(2) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadism, Islam et Pouvoir Politique dans la societe maure precolonial (XI eme siècle-XIX eme siècle): Essai sur quelques aspects du tribalism. These pour le doctorat en sociologie, Paris V Reine Descartes, 1985, Tome 1, p-p. 22-24.

(3) Thomas Whitcomb. New Evidence on the Origins of the Kunta. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 38,No. 2(1975), pp . 413.

(٤) باب بن الشيخ سيديا: إمارتا إدوعيش ومشظوف، تحقيق: إزيد بيه بن محمد محمود، المعهد التربوي الوطني، نواكشوط، موريتانيا، ١٩٩٤، ص ١٥١-١٥٢. وأيضًا: المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٦٠.

فقد كوّنت مجتمعًا مهاجرًا في تمبكتو[١]. وسيتمُّ امتصاص الكثير من المجتمع الجكني المهاجر إلىٰ الجنوب السوداني الأبعد وفي مجتمعاتِه وينصهِرون فيها، كما سنشير إلىٰ ذلك لاحقًا.

وفي شنقيطي كانت القصة مختلفة، فقد كانت الحرب الأهلية جزءًا من صورة طويلة وربما كانت سابقة لأزمة المجتمع التجاري. فلقد بدأت الحروب علىٰ السيادة الدينية والمكاسب التجارية تتطوّر حثيثًا. وابتداءً من القرن السابع عشر أدّت الصراعات علىٰ منصب الإمامة والقضاء بين إيدوعلي والسماسيد في شنقيطي إلىٰ هجرة الأخيرين إلىٰ أطار في عام ١٦٣٠[٢]، وأفضت إلىٰ حرب أهلية بين إيدوعلي أنفسهم بين قسمين منهم عُرفوا بـ**الكحل والبيض**. وعندما انكسر الأخيرون ارتحلوا إلىٰ تجكجكة التي أسّسوها في عام ١٦٦٠، حيث بدأوا فصلًا جديدًا من حياة القبيلة. ورغم أن المصادر الأصلية والمحكية لا تتوقّف بصفة واضِحة عندَ نزاعٍ شبيهٍ يبدو أنّه شبّ بين الأغلال، مواطني شنقيطي الآخَرين، إلّا أننا نعرِف من إحالات لاحقة أن الحرب الأهلية ربّما وصلت إليهم وأدّت إلىٰ خروج متزامن لمجموعات منهم إلىٰ الحوض[٣].

ولم تتوقّف المشاكل علىٰ خط المدن في آدرار، بل وصلت إلىٰ ما وراء جنوب آدرار في تگانت والعصابة والحوض؛ ففي تيشيت تحاربَت المجموعات التجارية من ماسنة، السكان الأصليين، ضد إيدولحاج. ويبدو أن بقية العناصر المتمدِّنة في المدينة كالشرفاء وإيدوعلي وتجكانت وقفت إلىٰ جانب ماسنة. ويبدو أن الفترة شهدت -ربما بفعل هذا- هجرة جماعات من إيدولحاج استقرّت في أرض الگبلة، حيث بدأوا في تجارة ستزدهر لاحقًا وتتطوّر وترتبط بتجارة ما وراء النهر[٤].

---

(١) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) الخليل النحوي، بلاد شنقيط: المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧، ص ١٠٤.

(٣) الشنقيطي، الوسيط، ص ٤٧١-٤٧٣.

(٤) حماه الله ولد السالم، المجتمع الأهلي الموريتاني: مدن القوافل: ١٥٩١-١٨٩٨، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

وكانت تگانت أيضًا مسرحًا لهجرات قبلية كبيرة في هذه الفترة، ولا يتعلّق الأمر فقط بهجرة إيدوعلي البيض؛ فبعد ثلاثة عقود من الحرب الأهلية العلوية ظهرت خلافات في المجتمع المدني لقبيلة كنتة في ودان في عام ١٦٨٩-١٦٩٠ وحدث شقاق انتقل علىٰ إثره أولاد سيدي حبيب الله إلىٰ تگانت، إلىٰ قصر البركة، الذي بنوه وجعلوه مدينةً تجاريةً جديدة[١]. وربّما كانت العوامل التجارية مهمة في تأسيس القصر، ولكن عامل الصراعات القبلية كان مهمًا كذلك، وكان ما يزال يساهم في كثير من عمليات الارتحال في أوساط المجتمعات السلمية وفي ظاهرة «**الزوغة**» و«**الهجرة**» بين المحاربين. وقد يكون السبب الأساسي وراء هذه الصراعات القبلية، هو أن المدن ومناطق الانتجاع لم تعد تتحمل تعدُّد المجموعات، وخصوصًا إذا علمنا أن الجفاف تزايد مع منتصف القرن السابع عشر؛ ولذا تحاربت القبائل علىٰ المسارح والمصادر واحتكار النفوذ. وفي الوقت نفسه الذي احتدمت فيه حرب «**شربة**» في الغرب شهد الجنوب الشرقي تنازعات قبلية ملحوظة؛ فقد اصطدم أولاد علوش مع أولاد زيد في ولاتة في عام ١٦٦٣ في **قعة تكَلط**، التي نجح فيها الأخيرون في قتل الكثيرين من الأوّلين ورمي جثثهم في البئر[٢]. وبالطريقة نفسها التي خرج بها تجكانت وكنتة وإيدوعلي البيض وإيدولحاج، فقد خرج أولاد ازعيم، من أولاد يونس، من ولاتة[٣].

كان جزء من أزمة المجتمع القديم يتعلّق بتخلخل الخريطة النفوذية بفعل الهجرات الجديدة القادمة من الشمال، التي لم تكن كلها هجرات بني حسان. فمنذ القرن السادس عشر بدأت بعض الكُتل المغربية المحاربة في التدفق إلىٰ المدن. ولعلّ أول الاحتكاكات المسجلة بين هؤلاء مع سكان المدن الصحراوية قد قام في تكَبة، في الجنوب الشرقي، عندما وصل العروسيون في القرن السادس عشر. كانوا نواة من الجيش السعدي الذي قدم لفتح بلاد السودان، وقد بدأوا البحث عن موقع بعد انتهاء الحملة السعدية. فقد تم حسم السيطرة علىٰ مجالات

(١) نفسه، ص ٦٥.

(٢) المختار بن حامد، حوادث السنين، ص ٥١.

(٣) نفسه، ص ٦٤.

الاحتكاك مع السودان بفعل القوىٰ الحسانية في الجنوب، وخصوصًا القوىٰ اللاحقة التي سيروم السلطان المغربي التحالف معها كأولاد امبارك والترارزة والبراكنة. وحتّىٰ قبل هذا عاد العروسيون إلىٰ تكَبة وبدأوا في فرض المغارم علىٰ أهلها من تجكانت[١]. كان الجكنيون مجتمعًا متعلمًا وتجاريًا إبان تعرُّضِه لعنف العروسيين الأكثر تسلّحًا والمتدرِّبين في المحلات الضاربة. ولكنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، بل دخلوا معهم حربًا أدّت إلىٰ تدمير كصر تكَبة نهائيا بحيث لم يبق فيه غير بعض المنازل المدمّرة في القرن التاسع عشر[٢]. ولم تُحَل مشكلة العروسيين إلا بالاستعانة بقوة ضاربة من إيديشلي وإيدوعيش، آخر المحاربين الصنهاجيين في الصحراء، فسارعوا إلىٰ نجدة الجكنيين من المحلة العروسية، التي من الأرجح أنّهم خافوا من نفوذها المتفاقم. وربما جعل هذا المدن تحت رحمة عناصر خارجية عليها، مفاقمًا من أزمة المجتمعات المتاجرة والمسالك القوافلية. وربما في الفترة نفسها قام أولاد يونس بتدمير قرية تيزيكَت، غرب ولاتة، لأسباب تتعلّق بالمغارم، وهو التدمير الذي أدىٰ إلىٰ هجرة أهل القرية التي كان أهلها «أهل دين وعلم»، بلغة مؤرخ القرن التاسع عشر صالح بن عبد الوهاب، إلىٰ تمبكتو[٣].

أحيانًا كانت ثمّة انعكاسات عرقية علىٰ الهجرات البيضانية التي أزاحت أو امتزجت مع سكان الجنوب بشكلٍ حثيث. فلم تتوقّف الهجرات الصنهاجية القافلة إلىٰ الجنوب عند المدن في آدرار، بل هبطت إلىٰ المجال السونينكي في ما وراء تگانت جنوبًا فالحوض وولاتة، حيث نزلت أفواج المحاجيب، وأزاحت البامبارا شيئًا فشيئًا إلىٰ الجنوب. أما في الحوض ولعصابة فسيبدأ السونينكي في التراجع مع القرن الخامس عشر رغم أن عناصر سودانية بقيت وتعايشت لوقت وجيز مع الهجرات اللاحقة من قبائل كنتة في الرشيد في تگانت، واقتسمت معهم

---

(١) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ١٣٣.

(2) J. Ancelle, p.202.

(٣) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب علىٰ الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، تحقيق وإشراف الزاوية العلمية والثقافية للعلامة محمد صالح ولد عبد الوهاب، ١٩٩٣، ص ٤٣.

أسرار وديان تگانت[1]. وربما لم يكن هذا غير جزء من عملية تاريخية أعمق وأقدم اندمجت فيها المجتمعات السودانية الأصلية، كمجموعات تامكونة وأماسنة، مع الوافدين الصنهاجيين وأفضت إلىٰ الانصهار في لغتهم والتثاقف معهم. وعلىٰ العموم، فقد شهِدت هذه الفترة امتزاجًا قويًا للبيضان والسودان كان ظاهرًا في اللغة التي تولّدت من لغتهم الأم، الصنهاجية والسونيكية. هذه اللغة هي آزير، التي كانت سائدة بقوة في مجالات مختلفة فيما سيعرف لدىٰ لواحِق العرب والبربر بـ «تراب البيضان»، وبالأخص في الطريق القوافلي من آدرار إلىٰ شمال الحوض[2].

كما أن هذه هي الفترة التي شهدت تغلغل المجموعات الحسانية إلىٰ الجنوب الذي تدفّقَت إليه من منطقة التافيلالت أو من الساقية الحمراء في شكل أفواج البرابيش والرحامنة وأولاد أعمر والودايا الذين تغلغلوا حثيثًا علىٰ مدّة قرون إلىٰ الجنوب إلىٰ نهر السنغال، وسيطروا علىٰ مساحات أرضية واسعة من المجال جاعلينها بلادهم أو مناطق نفوذِهم. في بدايات القرن السادس عشر كان صراعهم مع السود ومع بعضهم البعض أمرًا مستديمًا؛ وكانت تحفزّه الخيول المقاتلة التي امتلكها الجانبان. بحسب فرناندس، الذي نقَل لنا أولىٰ الصّور عن المعقليين في الصّحراء الموريتانيّة، فقد كانوا قومًا مقاتلين ومحاربين لا يعتمدون علىٰ وفرة في الفواكه والزيوت بل كانوا يقتصرون علىٰ الموارد الرعوية كاللبن واللحوم[3]. ولكننا نعرف أنّ جزءًا من معاركهم مع المجتمعات الزراعية كان يتعلّق باحتياجِهم للمواد الزراعية، المهمة أيضًا لتغذيتِهم.

إذن، كان هذا عصر إعادة تشكل المدن في سياق استعداد المجتمع للتشكل مرة أخرىٰ لامتصاص الهجرات الجديدة أو التأقلم معها. كانت القبائل الصنهاجية تتعرّض لهجمات من القبائل المحاربة الجديدة. وسيكون لهذا انعاكاسات عميقة

---

(1) Webb, Desert Frontier, 17.

(2) Cleaveland, 38.

ستبقىٰ لغة آزير لغة سائدة في مجال بلاد التكرور حتىٰ القرن الثامن عشر علىٰ الأقل، وفي القرن السابع عشر نشاهد اللغة في أبيات ولد رازكة: «..... وقالت بآزير لها أدوارني».

(3) Fernandes,69-71.

علىٰ التركيبة القبلية، وستتحوّل بعض المجموعات الصنهاجية والزاوية إلىٰ قبائل محاربة للذود عن نفسها، وستتحوّل في القرون القادمة إلىٰ أكبر القوىٰ النفوذية، وستضحي بطبيعتها العلمية أو التجارية في هذا السبيل، وخصوصًا في الشمال حيث ستتوسّع قبائل الركَيبات وأود بوسباع من قبائل رعوية متعلِّمة، إلىٰ قبائل متاجرة ومالكة للمسارح الكبيرة ولها حاميات ومقاتلون أشداء. أما الصراعات المستعِرَة بين المحاربين فستسفر دومًا عن تجريد المهزومين من وضعيتهم المحاربة وإلحاقهم بالقبائل المنتصرة أو لجوء بقاياهم في شكل «**تياب**» و«**زائغين**» يعيشون بين القبائل الزاوية، وهو ما سينعكس علىٰ كل التركيبة القبلية وسيلتف -دون أن ينتبه أحد لهذا- علىٰ قيمة النقاء القبلي والأصل القبلي المشترك المتخيّل. وكما ساهم التنقل بين أنماط الإنتاج القائمة في تغيير الهوية القبلية، فتحوّلت مجموعات من نمط حياة البداوة والترحال إلىٰ الانتجاع والاستقرار ووجدت نفسها في أحضان المجتمع المستقر وتداخلت معه. وإذا جاز لنا أن نتحدّث بنمطية فقد كانت هذه هي «البنية التحتية» التي شكّلت المجتمع الموريتاني مرة أخرىٰ، أما «البنية الفوقية» التي ستنتج عنها لاحقًا فكانت الأنساب وإعادة كتابتها لتبرير هذه التحولات وأحيانًا لتفعيلها.